

جامعة اثنيا
كلية ودر العلوم

الصلات الحضارية للخلافة العباسية

١٣٢ - ٢٣٢ هـ

من عام

٧٤٩ - ٨٤٧ م

إعداد

دكتور / أحمد تونني عبد اللطيف

مُقَدِّمَةٌ

في عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م تبوأ العباسيون حكم الدولة الإسلامية ، خلفاً لأسلافهم الأمويين ، ومن ثم فكان عليهم أن يوجهوا سياسة دولتهم داخلياً وخارجياً على السواء ، وبالطبع فإن ما يهمننا من هذه السياسة حسب موضوع بحثنا هو الصلات الحضارية للخلافة العباسية ، مع أبرز القوى المعاصرة لها شرقاً وغرباً ، عبر قرن من الزمان من عام ١٣٢ هـ إلى ٢٣٢ هـ ، وهو ما يحلو لبعض المؤرخين أن ينعتوه بالعصر الذهبي .

ومما لا شك فيه أن هذه الصلات قد تنوعت وتباينت بين سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية وثقافية .

وبناءً على ذلك قسمت البحث إلى أربعة فصول :

جاء الأول :

ليوضح الصلات الحضارية في الجانب السياسي ، وكيف أن الخلافة العباسية في عهد أبي العباس عبد الله ١٣٢ / ٧٤٩ - ٧٥٣ م . قدمت يد العون لابن أمير الشاش ضد النفوذ الصيني ، مما أدخل العرب في صراع مع الصين ، ثم تطلب الموقف بعد ذلك تغييراً في هذه السياسة فنرى من باب الصلات الحضارية أن الخلافة العباسية تحديدها في عهد أبي جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م .

لإمبراطور الصين (سو جونغ Su- T sung) للقضاء على ثورة (أنلو شان) التي اندلعت عام ١٣٦هـ / ٧٥٤ م ، كما تعددت الصلات الحضارية في هذا الجانب مع كل من الهند ، والإمبراطورية البيزنطية ، وتتجلي قمة المرونة في هذا المجال في الصراع بين الخليفة هارون الرشيد ، وبين الإمبراطور البيزنطي نقفور ، فرغم تأجج الصراع بينهما وافتتاح هرقله وغيرها إلا أن الرشيد قبل عرض نقفور السلمي في الخراج والجزية .

وجاء الفصل الثاني :

ليلقي ظلالة على الجانب الاقتصادي ، ويبين كيف يستقدم المنصور ، المهندسين والصناع ، والعمال من كل صوب وحذب ، وكيف استفاد المنصور من انتقادات سفير بيزنطة لبغداد في ندرة مائها ، علماً بأنه جاء مهنئاً ، وكيف بذل المنصور جهداً كبيراً في إنماء اقتصاد بلادهم مستخدمين في ذلك مرونتهم وصلاتهم الحضارية .

ويأتي الفصل الثالث :

ليوضح الصلات الحضارية في الجانب الاجتماعي ممثلة في وفد الهند الذي التقى بالرشيد وتجلت فيه مرونته الفائقة ، وفي موقفه من الإمبراطور البيزنطي نقفور حين طلب منه جارية لابنه من سبي هرقله فأجابته الرشيد ، إلى طلبه بل وأمر بتزيينها وإرسالها محملة بالعطور والزييب والترياق وغير ذلك ، دلالة على النبيل الحضاري ، فبرغم

الصراع الحضاري بينهما استجاب لطلب إنساني ، وفي البدايا المتبادلة بين الخليفة المأمون ، و " رهمي " ملك الهند ، وغير ذلك من الجوانب الاجتماعية .

وأخيراً جاء الفصل الرابع :

ليبين الصلات الحضارية في الجانب الثقافي ، وكيف احترم الخلفاء العباسيون العلم والعلماء ، وكيف وفد على الخلافة العباسية أطباء وحكماء وعلماء الهند وغيرها ، مثل : " كنكة " الفلكي ، وجورجيس الطبيب ، وكذلك " منكة " وكيف تمت الاستفادة من ابن بختيشوع ذلك الطبيب الذي نبغ في علم النفس ، كذلك استفادت الخلافة في عهد المأمون من ثقافة اليونان ، وترجمات السريان وغيرهم للعديد من الكتب ، فضلاً عن محاولة المأمون للأخذ بآخر ما وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية من علم ، إذ جدّ في طلب " ليو " عالم الرياضيات البيزنطي حين ذبوع صيته ، ومع أن الإمبراطور البيزنطي (ثيو فيل) لم يستجب للمأمون إلا أنها محاولة تحسب له من تحديث ثقافة بلاده .

ولاشك أن هذه الصلات تمثل قمة النبل الحضاري لأنها تغلب مصلحة البلاد أي المصلحة العامة على الأهواء الشخصية والمطامع الذاتية ؛ فهي روح الجماعة لا روح الفرد .

وقد اعتمدت على عدد من المصادر والمراجع التي عالجت بعض جوانب الموضوع ، سالكا منهاجاً تحليلياً لما ورد من النصوص ونقدها ظاهرياً وباطنياً قدر الجهد والطاقة .

وبعد فإن كنت قد أصبت فهذا توفيق من الله وإن كنت لم أصب فهذا من نفسي .

والله أسأل التوفيق والرشاد .

أحمد تونسي

الفصل الأول

في المجال السياسي

الفصل الأول

في المجال السياسي

يتسم هذا المجال بالبروز الواضح في العلاقات بين الدول ، وربما يرجع ذلك إلى مدى الارتباط الوثيق بين السياسة والحرب ، فالحرب غالباً ما تشغل أذهان الناس خاصتهم وعامهم على السواء ؛ لما لها من بعض الآثار السلبية التي تعوق مسيرة حياتهم ، وبالتالي فإن تطلع المسؤولين إلى وقف القتال عقب اندلاع الحروب يعد مسلكاً حضارياً يسهم في النقاط الأنفاس ، ويعمل على إبرام المعاهدات كما يعين على إقرار الاتفاقيات .

ويمكن للمتأمل لصفحات التاريخ الإسلامي أن يلمس دون كبير جهد الدور الحربي النشط الذي قامت به الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) خلال حكمها للدولة الإسلامية ؛ من أجل تثبيت دعائم ملكها تمثل ذلك في سلسلة من الصراعات والحروب مع معاصريها شرقاً وغرباً حتى تركت في النهاية دولة مترامية الأطراف ، وملكاً شاسعاً امتدت حدوده من الصين شرقاً إلى بلاد الأندلس وجنوب فرنسا غرباً ليأول ذلك من بعد إلى العباسيين الذين تبوعوا حكم الدولة الإسلامية عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م .

وما أن بدأ العباسيون حكمهم (بأبي العباس عبد الله بن محمد) ١٣٢ - ١٣٦هـ / ٧٥٠ - ٧٥٤م حتى مدوا يد العون من باب الصلات

الحضارية في الجانب السياسي لابن أمير (الشاش) * عندما طلب
نجدتهم من وطأة النفوذ الصيني الذي راح والده نفسه ضحية له .

ولا أدل على ذلك من استجابة (أبي مسلم الخراساني) والي
خراسان من قبل العباسيين لهذه النجدة ، حين طلب من قائده (زياد بن
صالح) - والذي كان قد وجه للقضاء على تمرد (شريك بن شيخ
المهري) ببخارى عام ١٣٣هـ / ٧٥١ م - أن يتوجه بعد نجاحه
في مهمته لنجدة ابن أمير الشاش بالرغم من توقع حدوث مواجهة مع
القوات الصينية ، وبالفعل وقع الصدام بين القوات الصينية بقيادة
(كاوشيان كي Koa Shianchi) وبين الجيش العربي بقيادة (زياد بن
صالح) وانتهى لصالح المسلمين (١) .

وهكذا رأينا كيف بدأ العباسيون صلاتهم الحضارية في عهد أول
خلفائهم حينما مدوا يد العون لابن أمير الشاش ضد النفوذ الصيني ،
صحيح أن هذه السياسة أدت إلى مواجهة عسكرية مع الصينيين لكنها
أثمرت إيجابياً في إعلاء شأن وقدر الخلافة العباسية .

ولكون سياسة الحكام تخضع في توجهها إلى تغيير المصالح
والأهداف الخاصة والعامة ، فإن صلاتهم وعلاقاتهم تتغير أيضاً وفقاً
لذلك ، ومن هنا فليس من المستغرب أن يصبح عدو الأمس صديقاً
اليوم ، وصديق اليوم عدو الغد وهكذا . . . ومما يوضح هذه الرؤية

* - الشاش : بلاد ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك
الحموي (ياقوت) جـ ٣ ، ص ٣٠٨ ، مادة شاش .

قيام الخليفة العباسي الثاني (أبو جعفر المنصور) ١٣٦ هـ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م بمد يد العون لإمبراطور الصين (سو جونغ Su - Tsung) للقضاء على ثورة (آنلوشان An Lu shan) التي اندلعت عام ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م على إمبراطور الصين الأسبق (يونغ جونغ) .

ومما يذكر أن (آنلوشان) هذا كان حاكماً على مدينة صغيرة يقال لها (يون تشو Yun Chow) ، ثم ارتقى بعد ذلك إلى منصب المحافظ بولاية (هاتونغ ho - Tung) عام ٧٥٠ م ، وعندئذ كثر أتباعه من التتار ، ومن هنا شكل خطورة على حكومة الصين ، حتى خشى أحد الوزراء على نفوذه وأبلغ الإمبراطور بأمره ، وفي عام ٧٥٤ م احتال هذا الناصر لدخول عاصمة الدولة ، وما أن تنامي الخبر إلى مسامع الإمبراطور (يونغ جونغ) حتى أصدر أمره بمنعه من ذلك العمل ، لكن القرار جاء متأخراً ، فقد أعلن (آنلوشان) ثورته ، واستولى على العاصمة الشرقية (لويانغ Lo - Yang) ، ثم أرسل قواته لمهاجمة العاصمة الغربية (شانغ آن Chang An) في ولاية شانسي ، وحينئذ نادى بنفسه إمبراطوراً على الصين .

وإزاء هذا الموقف المتأزم فرّ الإمبراطور (يونغ جونغ) إلى (بوان Pao - An) بولاية (سيجوان Sze - Chwan) ، بينما كان ولي عهده بمدينة (بنليان Pin - Liang) ، وحينئذ هرع إليه الوزراء ووجهاء القوم ونادوا به إمبراطوراً على الصين ، فتلقب (بسو جونغ) عام ٧٥٥ م . وعلى الفور طلب هذا الإمبراطور نجدة القوات الإسلامية ،

وبالفعل جاءه المدد والعون الذي به تم القضاء على ثورة (أنلوشان) عام ١٣٩هـ / ٧٥٧م ، واسترد بذلك الإمبراطور هيبه ملكه التي فقدت (٢) .

وهكذا لعبت الصلات السياسية دوراً مهماً في القضاء على تمرد (أنلوشان) واسترداد عرش الإمبراطورية (لسو جونغ) عام ١٣٩هـ / ٧٥٧م ، وإذا كان الأستاذ (بدر الدين الصيني) في كتابه (العلاقات بين العرب والصين) قد أدار جدلاً حول صحة هذا الخبر ، وهل هم (الأوغرة) أم العرب ، إلا أنه في نهاية الأمر توصل إلى إقرار بأن المساعدة تمت للإمبراطور من (الأوغرة) ومن العرب الذين إن لم يكونوا قد أرسلوا من قبل الخليفة نفسه فهم من رعاياه وبأمر منه ، وفي موضع آخر يذكر الأستاذ (بدر الدين) أن الأستاذ (كاركورن) في كتابه تاريخ ممالك جين قد ذكر أنه في عهد الإمبراطور (سو جونغ) الذي حكم الصين من عام ٧٥٦ - ٧٦٢م وفد عليه رسول من " خليفة بغداد يحمل التحف والهدايا فودعه بالتعظيم الوافر والإكرام الفائق " (٣) . وربما كان هذا الرسول قد جاء لتهنئة الإمبراطور بالقضاء على التمرد في بلاده ، وبذلك يكون مد يد العون للإمبراطور الصين (سو جونغ) تعبيراً عن الصلات الودية أمر لا يقبل الجدل .

ومما يعمق هذا الرأي أن أهل الصين كانوا على علم بالعباسيين إذ أطلقوا عليهم اسم (خئي تاشي) أي العرب ذوي الملابس السوداء تمييزاً لهم عن الأمويين الذين كانوا قد عرفوا لديهم من قبل باسم (بنئي تاشي) أي العرب ذوي الملابس البيضاء . وهذا دليل على معرفة أهل الصين بتطور الأوضاع في الدولة الإسلامية ، كما يذكر أيضاً

وجود (الفغفوري الصيني) بمدينة سامرا ، مما يدل بما لا يدع مجالاً للشك على وجود صلات بين الخلافة العباسية والصين في تلك الحقبة الزمنية ، ويؤكد أبو جعفر المنصور هذه الصلة عندما فكر في إنشاء مدينة بغداد بقوله " هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء ، يأتينا فيها كل ما في البحر " (٤) .

وإن كان الخليفة (أبو جعفر المنصور) كما أوضحنا قد أولى (الصين) بعضاً من سياسته المرنة ، فإننا نراه أيضاً يولي (الهند) قدراً من هذه السياسة ، فيذكر (ابن عبد ربه) في (عقده) أن الخليفة (أبو جعفر المنصور) وقع في كتاب أتاه من (عبيدة بن موسى بن كعب) عامله على السند " يخبره أن جنوداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال فأخذوا أرزاقهم منه : فوقع : لو عدلت لم يشغبوا ولو وفيت لم ينهبوا " (٥) .

وبالرغم من أنه رد قليل الكلمات إلا أنه كثير المعاني ؛ إذ يوصي فيه (المنصور) عامله (عبيدة) بعدم استخدام القسوة والعنف مع الرعية ، بل عليه أن يشيع العدل فيهم ، ويوفي لهم حتى تتم الألفة ويتمكن الاستقرار بما يخدم مصلحة الخلافة العباسية .

وفي عام ١٥١هـ وإزاء ظهور العلويين في (السند) وتعلون (عمر بن حفص) وإليها معهم ، عتب (المنصور) عليه ، وحينئذ خشي (عمر) على نفسه ، فسفر بينه وبين (المنصور) رسول ؛ فسي محاولة منه لتخفيف الضغط على ذلك الوالي ، لكن (المنصور) أمر بضرب عنق هذا الرسول لتواطئه في الموقف ، كما أمر بعزل

(عمر بن حفص) عن (السند) وتوليته على إفريقية ، وإسناد ولاية
السند (هشام بن عمرو التغلبي) وأوصاه بالاجتهاد في القبض على
(عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي
طالب) (٦) .

وعندما رأى (المنصور) بعض التقاعس من (هشام) فيما كلفه
به استحثه على ذلك ، وما أن قتل العلوي المذكور على أيدي (سفنجا)
التغلبي أخا (هشام) حتى أخبر الأخير الخليفة (المنصور) بذلك ،
وعندئذ بعث إليه (المنصور) يشكره (٧) .

وتلك مرونة سياسية من (المنصور) في معاملة عماله بالسند ؛
عتاب للأول ، وشكر للثاني وحتى بعد عزل الأول أسند إليه أمر
إفريقية ، وربما كان ذلك يرجع إلى أمرين ؛ أولها : محاولة احتواء موقف
العلويين حتى لا يتفاقم خطرهم ويكثر أتباعهم بما يهدد أمن الدولة داخليا ،
والثاني : هو رغبة (المنصور) في هدوء جبهته الشرقية لانشغاله
بأمر عبد الرحمن الداخل - صاحب الأندلس - الأموي ، وبأمر الدولة
البيزنطية العدو التقليدي للمسلمين .

تلك لمحة يسيرة عن مرونة (المنصور) في سياسته تجاه الشرق
صوب الصين والهند ، فماذا عن تلك المرونة تجاه الغرب صوب الدولة
البيزنطية ودولة الفرنجة .

مما لاشك فيه أن الإمبراطورية البيزنطية كانت العدو التقليدي
للدولة الإسلامية للخلاف الجوهري بينهما في العقيدة الدينية ، ومن ثم كان

الصراع متجدداً بين الطرفين ، وبالرغم من ذلك فقد تعددت فترات وقف القتال تم فيها تبادل الرسل ، وعقدت خلالها الاتفاقات ، وفودي بموجبها الأسرى وهكذا

ويذكر الطبري (ت ٣١٠ هـ) أنه في عام ١٣٨ هـ في عهد الخليفة (المنصور) غزا قسطنطين الخامس (١٢٤ - ١٥٩ هـ / ٧٤١ - ٧٧٥ م) أراضي آسيا الصغرى ، ودخل مدينة (ملطية) عنوة بعد أن خرب سورها ، وبالطبع لم يسكت (المنصور) على ذلك ؛ فأغزا الصائفة كلا من (صالح بن علي والعباس بن محمد) عام ١٣٩ هـ فتوغلا في آسيا الصغرى ، وأعادا بناء ما خرب من ملطية ، ثم ما لبث أن توقف القتال ، وتم الفداء بين الطرفين ، وعن ذلك يقول (الطبري) : وفي هذه السنة كان الفداء الذي جرى بين المنصور وصاحب الروم ، فاستنقذ المنصور منهم أسراء المسلمين " (٨) .

وربما انتهج المنصور تلك السياسة لانشغاله كما أوضحنا من قبل بأمر العلويين لما في ذلك من خطورة على دولته .

وفي عام ١٤٥ هـ شرع (المنصور) في بناء مدينة (بغداد) ؛ لكي تكون حاضرة لبلاده ، وقد جلب - المنصور - إليها المهندسين والعمال والصناع من أماكن عدة ليسهموا في ذلك البناء ، وما أن انتهى من بنائها حتى وفد عليه رسول من بيزنطة ، وفي ذلك يقول الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ : جلس (المنصور) يوماً " فقال للربيع : انظر من بالباب من وفود الملوك فأدخله ، قال : قلت وأفداً من قبل ملك الروم . قال : أدخله ، فدخل فبينما هو جالس عند أمير المؤمنين ، إذ سمع

المنصور صرخة كادت تقلع القصر فقال : يا ربيع ينظر ما هذا ، قال :
ثم سمع صرخة هي أشد من الأولى ، فقال يا ربيع ينظر ما هذا قال :
فخرج الربيع ثم دخل فقال : يا أمير المؤمنين بقرة قربت لتذبح فغلبت
الجازر وخرجت تدور في الأسواق ، فأصغى الرومي إلى الربيع يفهم ما
قال ، ففطن المنصور لإصغاء الرومي ، فقال : يا ربيع أفهمه قال
فأفهمه . فقال الرومي : يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد
كان قبلك وفيه ثلاثة عيوب قال : وما هي ، قال : أما أول عيب فيه
فبعده عن الماء ولا بد للناس من الماء لشفاهم ، وأما العيب الثاني فإن
العين خضره وتشتاقي إلى الخضرة وليس في بنائك هذا بستان وأما
العيب الثالث فإن رعيته معك في بنائك ، وإذا كانت الرعية مع الملك في
بنائه فشا سره . فتجلد عليه المنصور فقال له : أما قولك في الماء
فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا ، وأما العيب الثاني : فإنا لم نخلق للهو
واللعب ، وأما قولك في سري فما لي سر دون ريعتي " (٩) .

وتلك مرونة سياسية مزدوجة من الطرفين ؛ فالمنصور يستمع
إلى كلام رسول بيزنطة الذي انتقد فيه بناء بغداد دون أن يناله أذى ،
وبيزنطة كانت قد أرسلت رسولها إلى بغداد من باب المرونة السياسية ؛
إما للتهنئة على بناء بغداد ، وإما لانشغالها بأعدائها في أوروبا ، وبالتالي
رغبت في عدم فتح جبهة عداء مع العباسيين .

وفي الأعوام من ١٥٢ حتى ١٥٥ هـ لم يتوقف نشاط العباسيين
ضد البيزنطيين ، حتى اضطر الإمبراطور (قسطنطين الخامس) إلى
طلب الصلح مع المنصور عام ١٥٥ هـ على أن يؤدي الجزية له (١٠) .

ومما يذكر من مرونة (المنصور) السياسية أيضا أن تبادل الرسل مع (بين) القصير Pepin The short ملك الفرنجة ، بما يخدم مصلحة الدولتين (١١) .

وهكذا رأينا ذلك الجهد الملحوظ لأبي جعفر المنصور من ناحية مرونته السياسية شرقاً وغرباً على السواء ، ليثبت أركان دولته ، ويحمي حدودها قدر جهده وطاقته ، وفي عام ١٥٨ هـ توفي المنصور ليخلفه ولده (المهدي) في حكم الدولة العباسية .

وما أن ارتقى الخليفة المهدي الحكم إلا وقد وجه جهوده المكثفة للنيل من البيزنطيين إذ جرد على بلادهم العديد من الحملات في أعوام ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ هـ ؛ وفي الأخيرة تمكن (هارون الرشيد) ولد المهدي من الوصول إلى سواحل البسفور ، مما اضطر الإمبراطورة (إيرين) - أرملة ليو الرابع والوصية على ابنها قسطنطين السادس - إلى انتهاج المرونة السياسية في هذا الموقف لتخفيف الضغط على بلادها . وأرسلت في هذا الشأن سفراءها إلى (هارون) في طلب الصلح ، وترك الحديث للطبري فيقول : " سار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وصاحب الروم يومئذ أغسطه إمرأه إليون ، وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها ، فجرت بينها وبين هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطائه الفدية ، فقبل ذلك منها هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له ، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه . . . فأجابت إلى ما سأل ، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار تؤديها

في (نيسان) الأول في كل سنة ، وفي (حزيران) ، فقبل ذلك منها ، فأقامت له السواق في منصرفه ، ووجهت معه رسولا إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة . . . وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين ، وسلمت الأسارى " (١٢) .

وبهذه الكلمات ، يكون الطبري قد أوضح لنا الصلات الودية في المجال السياسي التي انتهجت بين الخليفة المهدي بن المنصور ، وبين (إيرين) إمبراطورة الدولة البيزنطية ، والتي نتج عنها وقف القتال ، وتوقيع هدنة ثلاث سنوات ، ودفع جزية من قبل بيزنطة ، وتقديم الخدمات اللازمة للقوات الإسلامية .

وما من شك فقد أعلنت هذه المرونة من قدر الخليفة (المهدي) ومن هيئته بين الملوك ولا أدل على ذلك من أنه حينما أرسل إليهم رسله للدخول في طاعته ، أجابه إلى ذلك العديد منهم مثل : ملك (كابل) ، وملك (طبرستان) ، وملك (السند) ، وملك (طخارستان) ، وملك (فرغانة) ، وملك (إشروسنة) ، وملك (سجستان) ، وملك (الترك) ، وملك (التبت) ، وملك (الصين) وملك (الهند) ، وغير ذلك من الملوك . (١٣)

وفي عام ١٧٠ هـ أعتلى (هارون الرشيد) حكم العباسيين ، فعمل عندئذ على توطيد أركان دولته تارة بالمرونة السياسية ، وتارة بالحرب حسبما يتطلب الموقف ، فنراه في عام ١٨١ هـ يتوجه على

رأس جيوشه إلى أراضي الدولة البيزنطية ، ففتحاً حصن (الصفصاف) *
وفي نفس العام أغزى عبد الملك بن صالح تلك الأراضي حتى وصل إلى
(أنقرة) * ، وافتتح (مظمورة) * (١٤) .

لكن الإمبراطور البيزنطي (نقفور) كان له رأي آخر إذ نقض
في عام ١٨٧ هـ الصلح الذي كان أبرم من قبل عام ١٦٥ هـ بين
(هارون الرشيد) وبين (إيرين) إمبراطورة بيزنطة السابقة ، وأرسل
بهذا الصدد كتاباً إلى (هارون) جاء فيه " من نقفور ملك الروم ، إلى
هارون ملك العرب أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلي ، أقامتك مقام
الرخ (من قطع الشطرنج الكبار) ، وأقامت نفسها مقام البيدق (من قطع
الشطرنج الصغار) ، وحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها
إليها ، لكن ذلك ضعف النساء ، وحمقهن ؛ فإذا قرأت كتابي فأردد ما
حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا
فالسيف بيننا وبينك " (١٥) .

وعندما قرأ الرشيد كتاب (نقفور) غضب غضبة شديدة من ذلك
الأسلوب الاستفزازي ، وكتب إليه على الفور ما نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم : من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب

-
- * - الصفصاف : كورة من ثغور المصيصة بأرضي الروم .
 - * الحموي (ياقوت) ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٤١٣ .
 - * - أنقرة : اسم للمدينة المسماة أنكورية فتحها المعتصم في طريقه إلى عمورية ببلاد الروم .
 - * الحموي (ياقوت) : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ .
 - * - مظمورة : بلد في ثغور بلاد الروم بناحية طرطوس .
 - * الحموي (ياقوت) : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥١ .

الروم قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام " (١٦) وبتغيير بسيط أورد ذلك الرد (أبي الفراء) قائلاً : " بسم الله الرحمن الرحيم : من هارون الرشيد إلى نقفور ملك الروم ، قرأت كتابك يا ابن الفاجرة والجواب ما تراه دون أن تسمع به والسلام " (١٧) .

وتلك كلمات موجزة أنبأت عن حدث ضخم ؛ إذ توجه (هارون الرشيد) مسرعاً على رأس قواته حتى أناخ بباب (هرقله) * فافتتحها وغنم ، وخرب وحرق ما لم يرق له ولا يتفق مع سياسته وعندئذ طلب (نقفور) الصلح والموادعة على خراج يؤديه في كل سنة فأجابه الخليفة هارون إلى طلبه (١٨) .

عندما هم (هارون الرشيد) بالعودة إلى بلاده ، واقترب من بلدة الرقة * نقض (نقفور) العهد ، وخان الميثاق مستغلاً وعكة قد ألمت بالرشيد حينذاك فضلاً عن شدة برودة الجو معتقداً أن ذلك سيحول دون أيبة (الرشيد) ورجاله إليه وعقابه على فعلته تلك .

* - هرقله : مدينة ببلاد الروم سميت بهرقله بنت الروم بن اليفرين سام بن نوح غزاها الرشيد وسبى ابنه بطريقها .
الحموي (ياقوت) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩٨ .
* - الرقة : مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام ، وهي من بلاد الجزيرة لأنها بجانب الفرات الشرقي .
الحموي (ياقوت) : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٧ .

وعندما خشى أصفياء الرشيد من إبلاغه بالموقف ؛ رفع هذا
التحرج وزيره (يحيى بن خالد) محتالاً فيه بشاعر من جنده يكنى (أبا
محمد عبد الله بن يوسف) قائلاً :

نقض الذي أعيته نقفور

وعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه

غنم أتاك به الإله كبير

فلقد تباشرت الرعية إن أبى

بالنقض عنه وافدو بشير

وقال :

نقفور إنك حين تغدر إن نأى

عنك الإمام لجاهل مغرور

أظننت حين غدرت أنك مفلت

هبلتك أمك ما ظننت غرور

إن الأمام على اقتسارك قادر

قربت ديارك أم نأت بك دور

ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً

عما يسوس بحزمه ويدير

ملك تجرد للجهاد بنفسه

فعدوه أبدأبه مقهور (١٩)

وقال أبو العتاهية :

قضى الله أن يصفو لهارون ملكه

وكان قضاء الله في الخلق مقضياً

تحلت الدنيا لهارون بالرضا

فأصبح نقفور لهارون زمياً

وقال النيمي :

خان العهود ومن ينكث بها فعلى

حوائه لا على أعدائه نكثاً

فلما سمع الرشيد بهذه الأشعار قال : أوقد فعل (نقفور) ذلك ،
 وأسرع بالكره إليه حين أناخ ببلاده معاتباً إياه على فعلته ، ولم يبرح
مكانه حتى حقق ما أراد ، وفي ذلك قال أبو العتاهية :

غدا هارون بالمنايا

ويبرق بالذاكرة القضايب

ورايات يحل النصر فيها

تمر كأنها قطع السحاب

أمير المؤمنين ظفرت فأسلم

وأبشر بالغنيمة والإياب (٢٠)

وفي عام ١٩٠ هـ لقطع الطريق على (نقفور الأول) وإنهاء
مهاتراته ؛ حشد (هارون الرشيد) حوالي : مائة وخمس وثلاثين ألفاً من
قواته ، وتوجه بها إلى الأراضي البيزنطية ، فافتتح (هرقله) في شوال
من العام المذكور ، ثم ولي (حميد بن معيوف) سواحل بحر الشام ،
فبلغ (حميد) جزيرة (قبرص) إذ دخلها وسبى أهلها ، بعد ذلك توجه
(الرشيد) إلى (الطوانة) فتوقف بها قليلاً ، ثم رحل عنها تاركاً عليها
(عقبة بن جعفر) أمراً إياه ببناء منزل هناك . (٢١)

وإزاء ذلك أمسى (نقفور) بخطورة (الرشيد) عليه وتخرج
مركزه ، فأثر السلم ؛ وبعث بالخراج والجزية له عن رأسه وولي عهده
وبطارقته وجميع أهل مملكته ؛ خمسين ألف دينار منها أربعة عن
رأسه ، واثنين عن رأس ابنه ، فقبل الرشيد منه ذلك ، وكف عنه وتلك
مرونة ماهرة ، إذ أنه حقق ما أراد فلماذا لم يوقف القتال .

بل لم تتوقف مرونة (الرشيد) عند هذا الحد ، إذ أجاب (نقفور) إلى طلب خاص بابنه في جارية له من سبي هرقله ، وذلك نبل أخلاقي من الرشيد سوف نزيده إيضاحاً عند حديثنا عن الصلات الحضارية في المجال الاجتماعي .

المهم أن المرونة السياسية لعبت دورها في الصراع بين هارون الرشيد ، ونقفور ، إذ توقف القتال وعقد الصلح بين الطرفين على ألا يخرب الرشيد (ذا الكلاع) وصله ، وحصن سنان وعلى ألا يعمّر نقفور هرقله ، وأن يحمل إلى الرشيد ثلاثمائة ألف دينار (٢٢) .

الرشيد والتوازن الدولي

بنظرة عابرة على خريطة العالم السياسية في عهد (هارون الرشيد) ، يمكن التمييز بين أربعة قوى رئيسية كان لها أثرها في صنع أحداث التاريخ وقتئذ ؛ وهي الخلافة العباسية في بغداد ، والدولة الأموية بالأندلس ، والإمبراطورية البيزنطية ، والدولة الكارولنجية (الفرنجة) في إكس لا شابيل (آخن) . هذا بالإضافة إلى بعض القوى السياسية الأخرى ، كالصين والهند والخزر وغير ذلك .

ومما لا شك فيه أن القوى الأربعة السالفة الذكر كانت تمثل خطوط تماس لدائرة واحدة ، هي دائرة المصالح الخاصة لكل منها ، وعلى ذلك كان لابد من التحالف والتضاد بحكم المصلحة الخاصة فيما يمكن أن نطلق عليه سياسة المحاور ، أو التوازن الدولي .

فالخلافة العباسية كما رأينا دخلت في صراع طويل مع الإمبراطورية البيزنطية ، منذ أيام الخليفة المهدي وحتى عهد هارون الرشيد وهلم جرا . . .

وبالرغم من تعدد فترات السلام ، وعقد العديد من معاهدات الصلح إلا أن العداء كان مستحكماً بين الطرفين ، ولم تكن بيزنطة لتشتري السلام إلا لضعف يدب في أوصالها ، أو لعدو خارجي يهدد أرضها .

ونفس الحال يمكن أن نراه بين الأمويين في الأندلس ودولة الفرنجة فالأمويون ينشطون على سواحل بلادهم ويشنون العديد من الحملات البحرية على سواحل الفرنجة ، ففي عام ٧٦٨ م أغاروا على (مرسيليا) ، وفي عام ٧٧٨ م هددوا إيطاليا ، وفي عام ٧٩٣ م غزوا (ناربون) ، وأنشد أضحى التحالف واضحاً بينهم وبين بيزنطة ضد الفرنجة ، ويظهر ذلك في هجومهم على جزر البليار عام ٧٩٨ م ، وكانت هذه الجزر قد انتقلت حمايتها من بيزنطة إلى الفرنجة (٢٣) .

وفي الفترة من عام ٨٠٦ حتى ٨١٥ م قاموا بسلسلة من الهجمات المركزة على ممالك الفرنجة ؛ إذ طردوا عام ٨٠٦ م إحدى الفرق الفرنجية من جزيرة (كورسيكا) ، ومن عام ٨٠٨ حتى ٨١٠ م كانت لهم غارات متعددة ، وفي عام ٨١٣ م أغاروا على (نيس) وشفيتافكيا Civita Vecchia وكورسيكا ، وفي عام ٨١٥ م هجموا ثانية على جزر البليار ، وحينئذ اصطدموا هناك على مقربة من (ميورقة) بالأسطول الفرنجي بقيادة (امبورياس) الذي استنقذ خمسمائة كورسيكي من أسر

المسلمين ، وفي عام ٨١٥ م غزا أمويو الأندلس جزر البليار مرة أخرى (٢٤) .

وبهذه الصورة التي أوضحها لنا (ارشيبالد لويس) نكون مقتنعين تماماً بالموقف العدائي بين كل من أموي الأندلس والدولة الكارولنجية في عهد شارلمان .

ومن هنا فإن التقارب بطبيعة الحال لا يجمع الضدين ، بل يجمع إحداهما إلى أحد الضدين الآخرين ، ولما كان التحالف واضحاً بين بيزنطة والأمويين بالأندلس فإن التقارب بين الخلافة العباسية ودولة الفرنجة أصبح أمراً محتملاً من أجل المصالح الخاصة .

إذ أنه من مصلحة الخلافة العباسية أن ينشغل الفرنجة بأموي الأندلس ، حتى تتفرغ لصراعها المتكرر مع البيزنطيين فضلاً عن اضطلاعها بمهمة حماية مكاسبها الحضارية ، بينما كان من مصلحة (شارلمان) أن تتشغل عنه بيزنطة للعداوة السياسية بينها ، فضلاً عما يقع عليه من حماية بلاده من الخطر الأموي بالأندلس وهكذا . . فلاح عندئذ في الأفق ما يعرف بسياسة التوازن الدولي أو سياسة المحاور كما يسميها البعض .

وقد أكد المسعودي في مروجه على وجود صراع بين الأمويين بالأندلس ، وبين الفرنجة حين قال " وأشد ما على الأندلس في الأمم المحاربة لهم بالجلالة ، كما أن الفرنجة حرب لهم " (٢٥) .

وعن سياسة التحالف السالفة الذكر تمخض عدد من السفارات بين (هارون الرشيد) وشارلمان ، ويذهب البعض إلى وجود مثل هذه السفارات منذ أيام الخليفة (المنصور) الذي استقبل وفدا من (بيبين القصير Pepin The short) ملك الفرنجة عام ١٤٧ هـ / ٧٦٥ م ، فأعاد (المنصور) هذا الوفد مصحوبا ببعض سفرائه المحملين بالهدايا ، حيث وصلوا بعد ثلاث سنوات مارين في البحر إلى (مرسيلية) ، ثم أمضوا الشتاء في متزبالورين ، وأقاموا في قصر (ساس) بضفاف اللوار ، ثم عادوا بعد ذلك في البحر عن طريق مرسيلية (٢٦) .

وقد ثار جدل كبير حول علاقة (هارون الرشيد) بشارلمان ؛ وربما يعود منشؤه إلى تفرد المصادر اللاتينية بالإشارة إلى هذه العلاقة ، بينما أحجمت المصادر العربية عن ذكرها . (إينهارد) في كتابه سيرة شارلمان يذكر أن ثمة علاقة ودية كانت لسيدة " مع هارون Arons الرشيد ملك الفرس الذي حكم معظم بلاد الشرق باستثناء الهند فقد أثر هذا الأمير مودة شارلمان على كل ملوك الأرض وحكامها وبنى علاقته معه على الاحترام والكرم ، وعندما قام السفراء الذين أرسلهم شارلمان لزيارة القبر المقدس ومكان قيام سيدنا ومخلصنا - بالمثل بين يدي هارون الرشيد ومعهم الهدايا نقلوا له رغبات سيدهم شارلمان غير أن الرشيد لم يمنحهم ما طلبوه فقط وإنما أعطاهم حقا امتلاك القبر المقدس ، تلك المباركة " (٢٧) .

ويضيف (إينهارد) قوله " وعندما عاد السفراء إلى بلادهم ، بعث الرشيد سفراءه معهم إلى شارلمان يحملون له الهدايا الفاخرة إضافة

إلى مواد وعطور ومنتجات قيمة أخرى من البلاد الشرقية ، وقيل ذلك بسنوات قليلة كان شارلمان قد طلب من هارون الرشيد فيلا وبعث الرشيد إليه بالفيل الوحيد الذي كان يملكه " (٢٨) .

ومن خلال هذه الكلمات التي أوردتها (إينهارد) مولى شارلمان نراه ؛ لا يستطيع إخفاء تعصبه إذ جعل الخليفة (هارون الرشيد) الذائع الصيت بمثابة أمير ، فضلاً عن اتهامه إياه بمنح الفرنجة بعض الامتيازات في بيت المقدس ، وهذا بالطبع أمر يتنافى مع معطيات العصر آنذاك ، ولا يتفق وروح الجهاد التي كان عليها ذلك الخليفة في إعلاء كلمة الله .

ولكن على صعيد آخر أكد كلام (إينهارد) وصول السفراء من جانب (شارلمان) إلى هارون الرشيد ، والمثول بين يديه مقدمين الهدايا ، ناقلين تحيات سيدهم إليه ، كما أوضح عودة هؤلاء السفراء بصحبة بعض سفراء الخليفة محملين بهدايا الشرق من عطور وغيرها .

ولعل (وليم الصوري) كان أكثر حدة من إينهارد فيما وردده حيث قال " أن علاقات شارلمان مع ملك الفارسيين هارون صاحب السلطان على كافة أنحاء العالم - باستثناء الهند - كانت علاقات كريمة حتى أن الأمير (شارلمان) كان يؤثره بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها ، وكان يرى أنه لا ينبغي أن يكون التعظيم والإجلال الإله وحده دونهم جميعاً " (٢٩) .

وهنا نرى أن وليم الصوري قد وضع كلا من الخليفة هارون ،
وشارلمان في وضعهما الطبيعي ؛ فالأول هو صاحب السلطان والسيادة
على كافة أنحاء العالم ، تشخص إليه الأبصار ، وتخطب وده البلدان
ملوكها وأمرائها ، والثاني هو أحد هؤلاء الأمراء الذين يخطبون ود
الخليفة .

وقد قام الدكتور عبد العزيز الدوري بتحليل هذه العلاقة قائلًا :
تخلو المصادر الشرقية إسلامية ومسيحية من الإشارة إلى أية صلة بين
الرشيد وشارلمان ، وتتفرد المصادر اللاتينية بتلك العلاقة ؛ جاء ذلك في
كتاب حياة شارلمان VITACAROLI (لإينهارد) ، وكتاب : الأخبار
الملكية لسان كال ST.GALL,ANNALES AEGNI FRANCORUM
الأول معاصر لشارلمان ومولاه ، والثاني بعده بحوالي خمسين
عامًا ، كما أبد العلاقة بـ بـكلر BUCKLER في كتابه
HAROUN AL-RASHID AND CHARLES THE GREAT
P.170-178 وغير ذلك من المؤرخين .

وقد ذكر الدكتور الدوري أن شارلمان أرسل وفدين إلى الرشيد ،
عامي ٧٩٧ ، ٨٠٢ م ، ورسولا إلى بطريق القدس عام ٧٩٩ م ، ورد
الرشيد ببعثه وفدين عامي ٨٠١ ، ٨٠٧ م ، بينما أرسل بطارقة القدس
أربع سفارات على الأقل إلى شارلمان .

وكان وفد عام ٧٩٧ م إلى الرشيد يتكون من ثلاثة أفراد ؛
لانتفريد ، وسيجموند ، ويهودي اسمه اسحق مترجماً لهما ، وقد قضى
الوفد في مهمته ثلاث سنوات ، توفي فيها الأول والثاني وعاد الثالث ،

وهو اسحق معه فيل إلى شارلمان ، بينما كان وفد الرشيد عام ٨٠١ م إلى شارلمان يتكون من فردين أحدهما فارس عن الخليفة ، والثاني مغربي عن إبراهيم بن الأغلب ، وأخيرا شارلمان برجع (اسحق) مع الفيل وبعض الهدايا .

ويذكر الدكتور الدوري أنه أثناء تواجد وفد شارلمان علم ٧٩٧ م لدى الرشيد ، تبودلت الهدايا والصلوات الودية بين (بطريق القدس) و (شارلمان) ، وقد بدأ بذلك البطريق ؛ إذ أرسل راهباً ببعض هداياه إلى شارلمان ، ورداً على ذلك أرسل شارلمان مع الراهب (القسيس زكريا) يحمل هباته إلى الأراضي المقدسة ، وفي عام ٨٠٠ م عاد (زكريا) إلى (شارلمان) بصحبة راهبين عن (بطريق القدس) يحملان معهما مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح بيت المقدس إلى شارلمان .

وما أن أتى عام ٨٠٢ م حتى أرسل (شارلمان) وفده الثاني إلى الرشيد ، وقد عاد هذا الوفد عام ٨٠٦ م ، ومما يذكر أنه أثناء تواجد الوفد بالشرق أرسل (جرجيس) بطريق القدس راهبين إلى شارلمان وصلاً عام ٨٠٣ م ، وفي عام ٨٠٧ م وصل بلاط شارلمان رسول الخليفة هارون الرشيد ويدعى (عبد الله) ، وراهبان عن البطريق (توملس) ، وكان مع رسول الخليفة حيوان ملون بديع وأقمشة حريرية وعطور وتمر وساعة مائية عجيبة وأواني نحاسية (٣٠) .

وقد ناقش الدكتور (الباز العريني) في ملحق بكتاب (شارلمان) - الذي عرّبه عن كارلس ديفيز - علاقة الرشيد بشارلمان ؛ مشيراً إلى تبادل السفارات بين الطرفين ، وكان من بين هدايا الشرق إلى

شارلمان القيل ، والساعة المائية الغربية التي كانت تدق الساعات وفي دائرتها اثنتا عشرة نافذة يخرج منها في الساعة الثانية عشرة فرسان ، وما كادوا يخرجون حتى تتغلق ورائهم النوافذ ، ثم تفتح مرة أخرى لكي يعودوا أدراجهم .

كما ذكر الدكتور الباز العريني أن بطريرك بيت المقدس في علم ٧٩٩ م أرسل إلى شارلمان عدداً من المخطوطات المقدسة وفي علم ٨٠٠ م أرسل إليه علم القبر المقدس ومفاتيحه (٣١) .

كما علق على هذه الرواية عدد من المؤرخين نذكر منهم : الدكتور حسن إبراهيم حسن ، وجميل نخلة المدور ، وفيليب حتى ، والدكتور أحمد أمين ، والدكتور إبراهيم العدوي ، والدكتور عبد المنعم ماجد (٣٢) .

وصفوة القول : فإن الظروف السياسية للقوى التي عاصرت هارون الرشيد ، وإنجذاب كل واحدة منها نحو ومصالحها الخاصة ، وإشارة المسعودي عن الصراع بين الأمويين بالأندلس وبين الفرنجة ، والصراع المتكرر بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية ، وظهور دولة الأدارسة الشيعية بتونس ، كلها إشارات تقودنا إلى الاعتقاد بوجود هذه العلاقة ، وإن لم تتوافر في المصادر العربية ، فربما كان ذلك في مصلحة الخلافة العباسية ومن باب السرية الواجبة .

وبعد وفاة (هارون الرشيد) عام ١٩٣ هـ خلفه في حكم العباسيين ابنه (محمد الأمين) ، الذي استمر حكمه حتى عام ١٩٨ هـ —

قضاها في صراعات داخلية انتهت بمقتله ، ليخلفه عندئذ أخوه (عبد الله المأمون) الذي واكب سياسة أبيه تجاه البيزنطيين ؛ إذ أنه في عام ٢١٥ هـ شن هجوما على أراضي الدولة البيزنطية حتى وصل إلى طرسوس* . افتتح حصن ماجدة وقرة ، وقد طلب أهل (قرة) الأمان فأجابهم إلى طلبهم .

وفي عام ٢١٦ هـ كر المأمون ثانية على الأراضي البيزنطية ، فوافته حينذاك وهو بأذنه* رسل الإمبراطور البيزنطي (ثيوفيل بن ميخائيل) تخطب وده ، كما وجه المأمون خمسمائة رجل من أسارى المسلمين إلى المأمون ، وكان المأمون في تلك الأثناء قد دخل الأراضي البيزنطية ، ونزل على (انطيوخا) فصالح أهلها ، كما صالح أهل (هرقله) ، ووجه أخاه أبا اسحق المعتصم فافتتح ثلاثين حصنا ، ثم عاد بعد ذلك المأمون إلى دمشق (٣٣) .

وربما أراد الإمبراطور البيزنطي هذه المودة لظروف ألمت ببلاده فخشى أن يقع بين شقي رحي فراسل المأمون .

وفي عام ٢١٧ هـ شن المأمون هجوما على الأراضي البيزنطية ، ومكث بلؤلؤة مائة يوم ، ثم رحل عنها تاركا عجيفا بن عنبه - أحد قواده - عليها فخدعه أهلها وأسروه ثمانية أيام ، ثم أخرجوه

* طرسوس مدينة كبيرة عامرة غاية في العمارة والخصب .

الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ٤٧ .

* أذنه : بفتح أوله وثاني بلد من الثغور الشامية قرب المصيصة .
الاصطخري : المسالك والممالك ص ٤٧ .

وحينئذ توجه (ثيوفيل) إلى لؤلؤة ، فأحاطت قواته بعجيف ، وهنا وجه المأمون جنده تجاهه ، وما إن تنامي ذلك إلى مسمع (ثيوفيل) حتى رحل عن لؤلؤة ، وعلى أثر ذلك خرج أهل لؤلؤة بأمان إلى عجيف ^(٣٤) .

ولكي يقي (ثيوفيل) نفسه من بأس الخليفة المأمون كتب إليه في العام المذكور يسأله الصلح ، وأرسل كتابه مع وزيره ، وقد جاء فيه : " أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ، ولست حرياً أن تدع الحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك ، وفي علمك كاف عن إخبارك ، وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة ، راغباً في فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد ولئاً وحزباً ؛ مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر ، وأمن الطرق والبيضة ، فإن لخائض إليك غمارها ، أخذ عليك أسداها ، شأن فيلها ورجالها ، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة ، وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام " ^(٣٥) .

فرد المأمون عليه قائلاً : " أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت إليه من الموادة ، وخلطت فيه من اللين والشدّة ، مما استعطفت به ، من شرح المتاجر ، واتصال المرافق ، وفك الأسارى ، ورفع القتل والقتال ، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالاحظ في تقليب الفكرة ، وإلا اعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوتره في معتقه لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أكمل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن تقلكم ، ويتقربون إلى الله بدمئكم . . . ثم أوصل إليهم من الإمداد ، وأبلغ لهم ، كافياً من العدة والعتاد ، هم أظماً

إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة . . . موعدهم إحدى الحسينين ؛
عاجل غلبه أو كريم منقلب . غير أنني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة
التي يثبت الله بها عليك الحجة ، من الدعاء لك ولمن معك إلى الوجدانية
والشريعة الحنيفية ، فإن أبيت ففدية توجب ذمة ، وإن تركت ذلك ففي
يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول ، والإغراق في
الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى " (٣٦) .

وبالطبع هذا دليل قاطع على تواجد الصلات الحضارية السياسية
بين الخليفة المأمون ، والإمبراطور البيزنطي (ثيوفيل) والتي وإن دلت
على شيء فإنما تدل على سبق حضاري ، وتفهم للمواقف وتقديرها ،
دون الإخلال بوضع الدولة الإسلامية .

وفي عام ٢١٨ هـ توفى (المأمون) فخلفه في الحكم أخوه
(المعتصم) الذي سار على نهج سابقه ، في سياستهم تجاه البيزنطيين ،
فعندما اعتدى (ثيوفيل بن ميخائيل) الإمبراطور البيزنطي على أهل
(زبطرة) عام ٢٢٣ هـ ، وعاث فيهم فسادا ، تجهز له المعتصم بقواته
وهاجم بلاده وافتتح عمورية - التي قال فيها الشعراء الكثير - وأثناء ذلك
حاول ثيوفيل أن يسلك طريق المرونة السياسية ، ووجه من قبله رسولا
إلى المعتصم عند نزوله عمورية ، لكن (المعتصم) احتجزه على مقربة
منها حتى تم الفتح ، وربما نهج المعتصم ذلك لما نال أهل (زبطرة) من
القتل والسبي والتمثيل من قبل الإمبراطور (٣٧) .

وبعد وفاة المعتصم عام ٢٢٧ هـ خلفه ابنه (هارون الواثق)
في حكم العباسيين ، وفي عهده وبالتحديد عام ٢٣١ هـ تم الفداء بينه

وبين البيزنطيين ، بعد أن وفدت إليه رسل (ميخائيل بن ثيوفيل) طالبة منه ذلك ، وقد كلف الواثق خادمه (خاقان) باتمام هذا الفداء ، فوجه (خاقان) أحمد بن أبي قحطبه إلى البلاط البيزنطي لإحصاء عدد أسرى المسلمين هناك ، فوجدهم ثلاثمائة رجل ، وخمسمائة امرأة وصبي ، وبالفعل التقى الطرفان في يوم عاشوراء من العام المذكور على نهر اللامس قرب طرسوس وقد عقد على النهر جسران ؛ أحدهما للمسلمين يرسل عليه البيزنطيون والآخر للبيزنطيين يرسل عليه المسلمون .

وفي رواية أخرى أن مياه النهر كانت مخاضة فيما بينهما يطلق من خلالها أحد الأسرى فيقابلة في منتصف المخاضة أسير الطرف الآخر ، وبوصول كل منهما إلى معسكره يكبر المسلم ويكبر / المسلمون ويتكلم البيزنطي بكلام دينه ويحييه أهله .

المهم أن الفداء قد تم ، وتلك مرونة سياسية توقفت بموجبها الحروب وعاد الأسرى إلى ذويهم ^(٣٨) .

وصفوه القول : فإننا بهذا العرض المتواضع نكون قد أطلعنا إطلالة يسيرة على الصلات الحضارية في المجال السياسي بين الخلافة العباسية ومعاصريها ، وكم كانت هذه الصلات متعددة ومتنوعة ، ما بين كتاب يرسل ، ورسول يبعث ووفد يوفد ، وصلاح يتم ، واتفاق يعقد ، ومعاهدة تيرم وفداء يتبادل .

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصلات الحضارية للخلافة العباسية في المجال الاقتصادي .

الفصل الثاني

في المجال الاقتصادي

الفصل الثاني

في المجال الاقتصادي

لا شك أن الاقتصاد عماد الدول وكنز ثرواتها ، وموجه سياسات حكوماتها ، والباعث على رفاهية شعبها وأبنائها ، وعلى الحملة فهو عمودها الفقري للرقى والتقدم المادي ، ولما كان الإسلام نظاما متكاملا فإنه قد شمل كل جوانب حياة الإنسان الدنيوية منها والأخروية ، ونظمها تنظيما دقيقا وفق منهجه في صالح الفرد والمجتمع ؛ لذلك نراه يحث الإنسان ويحفزه على العمل وطلب الكسب والارتزاق في الدنيا حسب ما أحل الله له ؛ إذ يقول رب العزة في سورة القصص " وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنسى نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين " (٣٩) .

ويقول جل شأنه في سورة الجمعة : " فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون " (٤٠) .

ويقول عز من قائل في سورة الملك : " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور " (٤١) .

فالإسلام إذن دعوة لا تقتصر على أداء العبادات فحسب ، وإنما تشمل جميع وجوه حياة الإنسان بما يحقق له رquia وسموا وحياة كريمة ،

وفي هذا الشأن يقول الإمام أبو حنيفة النعمان : " طلب الكسب فضيلة كما أن طلب العلم فريضة " ، كما وضع الإمام الشيباني صاحب أبي حنيفة كتابا أسماه " كتاب الاكتساب في الرزق المستطاب " أوضح فيه أن طلب الكسب واجب على كل مسلم ومسلمة ، كما بين أنواع المكاسب في الزراعة والصناعة والتجارة والإجارة . . . كذلك أفرد الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين بابا عن (آداب الكسب والمعاش) مستشهدا فيه ببعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى " وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ؛ وآخرون يقاتلون في سبيل الله " (٤٢) وبذلك وضع الدين الحنيف السعي في طلب الرزق والكسب في مرتبة الجهاد . وأخيرا لم يفت العلامة (ابن خلدون) أن يخصص في مقدمته بابا عن المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال (٤٣) . مما يؤكد تماما عناية الإسلام بالحياة الدنيا التي بلاشك هي غرس الآخرة .

وانطلاقا من هذا فقد بذل الخلفاء العباسيون جهودهم من أجل النهوض بثروات بلادهم وإنماء اقتصاديات دولتهم زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا ، مستخدمين في ذلك كل الوسائل المتاحة . من خلال مرونتهم وصلاتهم الحضارية ويتضح ذلك في :

أولا : الزراعة :

لقد استهل (أبو جعفر المنصور) سياسة العباسيين المرنة في مجال الزراعة باستفادته من لقائه بسفير بيزنطة عندما وجه انتقاده

(لبغداد) في ندرة مائها وقلة زروعها ، فأصدر أمره على الفور
(لشميس وخلاد) ، بأن يمدا له قناتين من (دجلة) ، يخرسأله
الأشجار ، وبالفعل مدت له قناتين إحداهما من نهر (دجيل) الآخذ من
(دجلة) ، والأخرى من نهر (كرخايا) الآخذ من (الفرات) ، وتم جر
مائهما إلى (بغداد) في عقود وثيقة من أسفلها ، محكمة بالصاروج
والأجر من أعلاها ، حتى دخلت القناتين إلى المدينة ونفذت في شوارعها
ودوربها وأرباضها تجريان صيفا وشتاء دون انقطاع^(٤٤) وإن دل هذا
على شيء فإنما يدل على صلات حضارية إذ استفاد المنصور من رأي
أعدائه في مصلحة بلاده .

كما أجرى لأهل (الكرخ) وما اتصل به - في غرب بغداد -
عدة أنهار منها : نهر الدجاج - وسمى بذلك لوقوف أصحاب الدجاج
عنده - ، ونهر القلاحين ، ونهر طابق ، ونهر البزازين (بائعى الثياب)
مما أدى إلى إرواء الأراضي وإنماء الزرع بما يعود بالفائدة على مجال
الزراعة إحدى ركائز اقتصاد الدولة كما اعتنى المنصور بأرض السواد -
وهي الواقعة بين نهري دجلة والفرات - فشق فيها الترع والمصارف ،
وأجرى إليها الأنهار^(٤٥) .

كذلك لم تتوقف جهود الخليفة المنصور عند هذا الحد ، بل خطا
إلى الأمام خطوة ثانية ؛ حين أقطع الإقطاعات لبعض أعيان دولته ، طالبا
منهم تعميرها ، في مقابل حصولهم عليها وإسكانهم إياها من باب المكافأة
على جهودهم .

وتلك مرونة في سياسته وصلاته طبقها داخل بلاده فلم تكن وقفا على المجال الخارجي . ولقد أتت ثمارها فسرعان ما اتسع نطاق هذه القطائع ، وازدحمت بالسكان ملبية رغباتهم حاملة اسم صاحبها أو الطائفة التي قطنتها .

ومما يجدر ذكره من هذه القطائع : قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس ، على البصرة وقطيعة الصحابة - وهم سائر قبائل العرب من قريش والأنصار ، وربيعة ومضر على (الصراة) ، وقطيعة (الربيع بن يونس) مولى المنصور ، وكان بها تجاراً من خراسان من البزازين ، قطيعة (صالح بن المنصور) ^(٤٦) .

وقد أسدت هذه القطائع دونما أدنى شك صفات جليلة في مختلف نشاطات الحياة اليومية لا سيما عندما انتقل مركز الثقل السياسي من بغداد إلى (سامرا) أيام (المعتصم) ، إذ لم يشعر سكان بغداد بأي تأثير على الحركة التجارية أو التعاملات اليومية في بغداد من جراء هذا النقل .

وقد ذكر القاضي (أبو يوسف) في خراجه قطائع العراق بقوله : " فأما القطائع من أراضي العراق ، فكل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكمن في يد أحد " ^(٤٧) أي أن المنصور رغم أنه الخليفة لم يعتد على أية أراضي ، بل أقطع التي لم تكن بيد أحد .

ومما يذكر من جهود المنصور أيضاً أنه تسهلاً على الزراع ألغى الضريبة النقدية على (الحنطة والشوفان) ، وأحل بدلاً منها نظام المقاسمة : وهو دفع الضرائب نوعاً بنسبة المحصول ^(٤٨) .

وقد أوضح هذا النظام صاحب كتاب الخراج قائلا : " ولم أجد شيئا أوفر على من بيت المال ، ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ، ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل " (٤٩) .

وهكذا رأينا كم كان (المنصور) مرنا في سياسته ، حين أجوى المياه إلى بغداد شرقها وغربها على السواء ، وحين أقطع الإقطاعات وألغى الضريبة على بعض النباتات وأوجد بدلها نظام المقاسمة ، فكشّر بذلك الإنتاج وتنامت المحاصيل وعم الرخاء ، وعلى ضوء ذلك رخصت الأسعار وعنها قال الخطيب البغدادي : " أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد البزاز قال أنبأنا جعفر الخدي قال أنبأنا الفضل بن مخلد الدقاق قال سمعت داود بن صغير بن شبيب بن رستم البخاري يقول : رأيت في زمن أبي جعفر كبشا بدرهم ، وحملا بأربعة دنانق ، والتمر ستين رطلا بدرهم والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، والرجل يعمل بالروزگار في السور كل يوم بخمس حبات " (٥٠) .

ويأتي الخليفة المهدي بعد أبيه ليؤكد سياسته المرنة ، إذ عمم نظام المقاسمة السابق بحيث شمل كل أنواع المحاصيل حسب خصوبة التربة وسهولة ربيها أو صعوبته ، وقد قدر بنصف الغلة أو ثلثها أو ربعها أو خمسها حسب حالة الأرض وما تتكلفه من جهد كما أقطع المهدي أيضا الإقطاعات كأبيه ولعل (أرحا البطريق) تعد دليلا على ذلك ، وعلى

مدى مرونته التي سمحت بإقطاع هذا البطريق مستغلا في أراضي الدولة^(٥١) .

وما أن تولى هارون الرشيد عرش الخلافة حتى رغب في التخفيف عن رعيته أيضاً والحكم فيهم حسب الشريعة السمحة ، لا سيما في الجانب المالي ، فنراه يسند إلى القاضي (أبي يوسف) مهمة تأليف كتاب جامع يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والحوالي وغير ذلك^(٥٢) . فألف له القاضي هذا الكتاب الذي جاء شاملاً لنظام الخراج والفيء ، والعشور بما يتفق مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، وقد عرف باسم (كتاب الخراج) وذلك لم يكن إلا منتهى الحرص من جانب الخليفة هارون الرشيد حتى لا يظلم في دولته أحد سواء كان من المواطنين أم من رعايا الدولة (الذميين) وغيرهم .

وعندما اعتلى (المأمون) خلافة المسلمين نهج نهج أبيه في التخفيف عن رعاياه ؛ ففي عام ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م تسامح مع أهل الري في مبلغ ألفي ألف درهم من الخراج الذي كان مقرراً عليهم ، كما وضع عن أهل خراسان ربع خراجها المقرر لمجاعة ألمت بها حتى طابت أنفسهم فقالوا : ابن اختنا وابن عم النبي " صلى الله عليه وسلم " .

كذلك أمر في عام ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م بتخفيض خراج السواد ومقاسمة أهله على الخمسين بدلاً من النصف^(٥٣) .

وتلك في حد ذاتها مرونة من أجل النهوض بمستوى اقتصاد الدولة وتحسين أوضاع الرعية .

ومما يذكر آنذاك أن محاصيل الدولة قد أصابها التنوع والتعدد فهناك القمح والشعير والأرز والشوفان والذرة ، وكذلك القطن والكتان وقصب السكر ، فضلا عن أنواع ثمار الفاكهة والمواالح ، ومما يقال أن بطيخ مرو الشاهجان كان ينقل للخليفة المأمون وكذلك الوثائق معبأ بالثلج في قوالب من الرصاص^(٥٤) . وقد أكد ياقوت الحموي وجود البطيخ في مرو الشاهجان بقوله : " يستوي الشريف والوضيع من مرو في ثلاثة أشياء الطبخ النارنك والماء البارد لكثرة الثلج بها ، والقطن اللين " ^(٥٥) .

هذا عن جهود الخلفاء في مجال الزراعة تنتقل الآن إلى الصناعة.

ثانياً : الصناعة :

فإذا ما انتقلنا إلى الصناعة ركيزة الاقتصاد الثانية لرأينا ما بذله خلفاء بني العباس من جهد وفير في هذا المجال .

فها هو الخليفة أبو جعفر المنصور يستقدم حين شرع في تشييد بغداد كما أسلفنا ؛ المهندسين والصناع والعمال من نجارين وحدايين وبنائين وغيرهم من كل صوب وحذب ، بما يؤسس بنية تحية للصناعة في بلده ، ربما ينشأ عليها تنظير فيما بعد .

ويذكر (هايد) أنه في بغداد والبصرة تم إنشاء مستودعات كبيرة لإنعاش حياة جديدة^(٥٦) ويقول الدكتور حسن إبراهيم حسن : وكذلك كان للصناعة نصيب كبير من عناية خلفاء العصر العباسي الأول . . .

فاستخرجوا الفضة والنحاس والحديد والرصاص من مناجم فارس وخراسان ، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمال فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج ^(٥٧) .

ولقد اشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج وعلى وجه الخصوص أيام الخليفة (المعتصم) ، الذي شيد لها المصانع في كل من بغداد وسامرا وغيرهما من المدن ، كذلك أنشأ مصانعاً للورق في عدة مدن جالبا إليها الخبرة الأجنبية من أساتذة وعمال من مصر وغيرها ^(٥٨) .

والجدير بالذكر أن العصر العباسي شهد نهضة واضحة في صناعة المنسوجات الحريرية والأطلس ، والسجاجيد والطنافس ، فبرزت (الكوفة) بكوفياتها الحريرية ، و (خوزستان) بمنسوجاتها ، (وتستر) بطنافسها وأطلسها الذي كثيراً ما كسيت به حوائط الكعبة ، كذلك عني الخلفاء العباسيون بمنتجات (تستر) ، فاستقدموا جماعة من نساجيها ، وأنزلوهم غرب بغداد فيما بين دجلة وباب البصرة في محلة نسبت إليهم تصنع فيها الثياب التسترية ^(٥٩) .

ومما يستلفت النظر أن (تنيس) بمصر ازدهرت بها صناعة الثياب الحريرية المعروفة (بالبدنة) ، والتي كانت ترسل للخلفاء وقد بلغت قيمة الواحد منها ألف دينار ، ويذكر أنه ليس فيها من الغزل سدى ولا لحمة سوى أوقيتين ، أما بقية الثوب فمن الذهب الخالص المحكم الصنعة ^(٦٠) .

كما اشتهرت بغداد بصياغة الذهب التي برع فيها الفرس من قبل ، وقد تطورت هذه الصناعة تطورا مطردا بلغت فيه من الدقة والجمال مبلغا كبيرا ، حتى أن الصائغين كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، كما كانوا يرسمون على الجامات (الكؤوس) صور الطيور تطير في أعلاها العقبان تنقض عليها ، وهي تحاول جاهدة الإفلات منها ، مما يشد البصر ويستلفت الانتباه (٦١) .

ومما اتسمت به بغداد أيضا كثرة دور الصناعة التي انتشرت بأرجائها ، والتي وصلت إلى أربعمئة رحي مائية ، وأربعة آلاف ومعمل لصنع الزجاج ، وعدد كبير من مصانع الخزف ، ويذكر أنه كان لكل حرفة سوقا خاصا بها كسوق : الحدادين ، والنجارين ، والبزازين ، هذا وقد أسس الخليفة المنصور سوق الكرخ بين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزا للصناعة والتجارة معا (٦٢) .

وهكذا رأينا كيف تعددت الصناعات ببغداد ، ولا شك أنها قد احتاجت إلى مقومات أساسية : كرأس المال والمواد الخام ، والأيدي العاملة ، والخبراء لتوجيهها ، وإن توفرت الأولى في خزانة الدولة فإن الثانية والثالثة والرابعة احتاجت إلى علاقة الخلفاء الودية للاستفادة منها ، ننقل بعد ذلك للحديث عن جهود الخلفاء في مجال التجارة .

ثالثاً : التجارة

التجارة ركيزة الاقتصاد الثالثة ، وهي نقل البضائع والسلع من مكان تكثر فيه إلى مكان تندر فيه ، أو يحتاج إليها ، وهي مهنة قديمة مارسها الإنسان منذ زمن بعيد ، وعلى أثرها تنقلت البضائع والسلع بين الحضارات القديمة : كالفرعونية ، واليونانية والهندية ، والفارسية ، والصينية ، والرومانية وغيرها .

ملاحظته أن العرب في العصور الوسطى لعبوا دوراً مهماً في هذه التجارة ، وأسهموا إسهاماً مبرزاً في نقل البضائع والسلع بين الشوق والغرب من الهند والصين إلى الدولة البيزنطية وبالعكس ، وقد مارس (النبي) " صلى الله عليه وسلم " وخلفاؤه الثلاثة ؛ الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) رضي الله عنهم التجارة بشرف وأمانة ، بل ويؤثر عن النبي " صلى الله عليه وسلم " أنه في غزوة تبوك عام ٩ هـ - اعتنى بتأمين آيله (العقبة) - ذلك الميناء الواقع على ساحل البحر الأحمر - على أموالهم ، ومنحهم عهداً بالألا يتعرض لسفنهم التجارية وسفن الموالين لهم بأي أذى (٦٣) .

ولما كان ظهور الإسلام في منطقة البرازخ (البحر الأحمر والأبيض ، والأسود ، وبحر الخرز ، والخليج العربي) ، وكان العالم حينذاك ينقسم إلى مجالين اقتصاديين متنافسين هما المحيط الهندي شرقاً ، والبحر المتوسط غرباً ؛ فقد قدم الإسلام عندئذ خدمة جليلة إلى هذين العالمين ، بجعلهما عالماً واحداً بعد الفتوحات الإسلامية التي انتشرت من

حدود الصين شرقا إلى سواحل المتوسط غربا ، بل وإلى أوروبا ، فلأصبح العالم كله يمثل مجالا اقتصاديا واحدا تروج فيه بضاعة الشرق والغرب على حد سواء (٦٤) .

والجدير بالذكر أن المسلمين أسهموا إسهامات جليلة في ميدان التجارة ، ومما يؤثر عن سياستهم المرنة الإيجابية في ذلك ؛ أنهم تركوا لسكان البلاد المفتوحة الحرية في أعمالهم التجارية دون حد من نشاطهم أو جهدهم ، وبالطبع فإن في هذا العمل إنماء للتجارة واقتصاديات بلادهم .

كذلك يذكر للمسلمين تشجيعهم الفرس على مزاولة نشاطهم التجاري ورحلاتهم المتعددة إلى سيلان والصين ، إذ يذكر أحد رحالة الصين أن سفن الفرس كانت تتردد على سيلان لتتاجر في البضائع الشرقية عام ٩٨ هـ / ٧١٧ م . وتحدث صيني آخر ويدعى Hwieao عام ١١٨ هـ / ٧٢٧ م قائلا عن الفرس أنهم " يميلون بفطرتهم إلى الاشتغال بالأعمال التجارية ، ومن عادتهم الإبحار في مراكب كبيرة يسرون بها في البحر الغربي . وأنهم يتابعون مسيرهم حتى يدخلون البحر الجنوبي إلى بلاد الأسود (سيلان) حيث الأحجار الثمينة . . . وأنهم يتجهون بسفنهم الكبيرة أيضاً إلى الصين مباشرة حيث مدينة كانتون للحصول على الحرير وغيره من البضائع " (٦٥) .

وبالإضافة إلى ذلك قام المسلمون بجهود أخرى فأسسوا ميناء البصرة عام ٦٣٥ - ٦٣٦ م ، على الضفة اليسرى لشط العرب ، وأقاموا بعبادان على مقربة من مصب النهر في الخليج العربي حامية لمكافحة

قراصنة البحر للحد من خطرهم على السفن التجارية ، وعلى بعد ستة أميال تقريباً من عبادان تجاه البحر وجد هناك موضع عرف (بالخشبات) قال عنه المسعودي " اتخذت الخشبات في فم البحر مما يلي الأبله وعبادان ، عليها أناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكرسي في جوف الليل خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرهما أن تقع في تلك الحرارة وغيرها فتعطب ، فلا يكون لها خلاص " والجرارة دخله من البحر إلى البر تقرب من بلاد الأبله . أي أن هذه الخشبات كانت لهداية السفن ، وقد رفعت الخشبات على أعمدة من الخشب منصوبة في الماء بني عليها مرقب أطلق عليها (الناطور) يوقد ليلاً لإرشاد السفن إلى مدخل نهر دجلة (٦٦) .

وما أن قدم العباسيون إلى حكم الدولة الإسلامية حتى جنوا ثمار غرس سابقهم في مجال التجارة ؛ فعملوا عندئذ بجديّة معروفة على الحفاظ على هذا الغرس والزيادة فيه ؛ فها هو الخليفة أبو جعفر المنصور عند تشييد مدينة بغداد الذائعة الصيت يقول : " هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء ، يأتينا فيها كل ما في البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينيا وما حول ذلك ، وهذه الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقّة وما حول ذلك " (٦٧) .

وتتضح رؤية المنصور الاقتصادية أكثر عندما وافق على استشارة الدهقان في اختيار موقع (بغداد) ، حين قال : " فالذي أراه يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيح في الجانب الغربي طسوجين وهما (قطربل وبادوريا) ، وفي الجانب الشرقي طسوجين

هما : (نهري بوق وكلوازي) فانت تكون بين نخل وقرب الماء ، فإن
أجذب طسوج وتأخرت عمارته كان في الطسوج الآخر العمارات ، وأنت
يا أمير المؤمنين على الصراه ، تجيئك الميرة في السفن من المغرب في
الفرات ، وتجيئك طرائف مصر والشام ، وتجيئك الميرة في السفن من
الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من أرمينية
وما اتصل بها في تأمرا حتى تصل إلى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم
وآمدد الجزيرة والموصل في دجلة ، وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك
إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر ، وأخربت القناطر لم يصل
إليك عدوك وأنت بين دجلة والفرات لا يجنيك أحد من المشرق والمغرب
إلا احتاج إلى العبور وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل ،
والسواد كله ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل " (٦٨) .

ويخطو (المنصور) خطوة للأمام ؛ حين ربط مدينته بنهر
الفرات عن طريق قناة من نهر كرخايا ؛ لتسهيل عملية الملاحة مع آسيا
الصغرى وغيرها من الأقاليم الغربية (٦٩) .

لم يكتف المنصور بهذا بل أنشأ سوق (الكرخ) وأقر فيه لكل
حرفة سوقاً خاصاً بها ، وقد شمل هذا السوق العام : سوق العطارين ،
والحدادين ، والنجارين والبزازين ، والرياحين (بائع الزهور) ،
والقصابين .

ومما يذكر أن السوق الأخير جعله المنصور في آخر الأسواق
حيث قال عن أصحابه أنهم سفلتة في أيديهم الحديد القاطع (٧٠) .

ويحدثنا (ياقوت) عن سبب إنشاء هذا السوق قائلاً : " لما ابتنى المنصور مدينة بغداد أمر أن تجعل الأسواق في طاقات إزاء كل باب سوق ، فلم يزل على ذلك مدة حتى قدم عليه بطريق من بطارقة الروم رسولا من عند الملك ، فأمر الربيع أن يطوف به في المدينة حتى ينظر إليها ويتأملها ، ويرى سورها وأبوابها وما حولها من العمارات ، ويصعد السور حتى يمشي من أوله إلى آخره ويريه قباب الأبواب والطاقات وجميع ذلك ، ففعل الربيع ما أمره به ، فلما رجع إلى المنصور قال له : كيف رأيت مدينتي ؟ قال : رأيت بناء حسناً ومدينة حصينة إلا أن أعداءك فيها معك قال : من هم ؟ قال " السوق ، يوافي الجاسوس من جميع الأطراف ، فيدخل الجاسوس بعلة التجارة والتجار هم برد الآفاق فيتجسس الأخبار ويعرف ما يريد ، ويتصرف من غير أن يعلم به أحد ، فسكت المنصور ، فلما انصرف البطريق ، أمر بإخراج السوق من المدينة وتقدم إلى (إبراهيم بن حبش) الكوفي ، و (خراش بن المسيب) اليماني بذلك وأمرهما أن يبنيا ما بين الصراه ونهر عيسى سوقاً وأن يجعلها صفوفاً ، ورتب كل صف في موضعه ، وقال : اجعلا سوق القصابين في آخر الأسواق فباتهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع " (٧١) .

وبذلك يكون المنصور قد قدم للتجارة جهداً واضعاً ومتميزاً إسهاماً منه في إنماء ثروة بلاده والارتقاء بها ، ولعل نصي (ياقوت) يعطي لنا إطلاقات واضحة على ما تميز به من مرونة ورقي حضاري فهو يستفد من خبرة عدوه ، وينفذها دون حرج ، وفي نفس الوقت يخشى

على رعيته من غدر القصابين (الجزارين) فيجعل سوقهم آخر الأسواق
ليقلل الاحتكاك بهم ، يا لها من مرونة وفكر راق متحضر .

وقد سار على درب المنصور في عنايته بالتجارة من أعقبه من
الخلفاء ، فمهدوا الطرق ، وأنشأوا الخانات (الفنادق) لراحة التجار ،
وحفروا الينابيع للتزود بالماء ويسروا الضرائب ، حتى كان عهد
(الرشيد) الذي حاول إثراء التجارة ، فلمح أهمية الخليج الفارسي
(العربي) كنقطة انطلاق الملاحه إلى الشرق الأقصى ، وعلى ذلك
حاول جمع مدنه في وحدة إدارية واحدة حتى لا تتجزأ المسئولية ، وأسند
هذا الأمر لمحمد بن سليمان بن علي ؛ إذ ولاه على البصرة والبحرين
والقرض وعمان واليمامة كور الأهواز وفارس (٧٢) .

لم يكتف الرشيد بهذا العمل بل فكر في ربط البحرين الأحمر
والأبيض بقناة ؛ لتوفير الوقت والجهد ولزيادة التبادل التجاري ، لكنه
خشى كما يقول المسعودي من سهولة اعتداء بيزنطة على الأراضي
المقدسة ، فعدل عن هذه الفكرة (٧٣) .

وبالرغم من عدم تنفيذها إلا أنها عبرت عن رؤية اقتصادية جادة
من جانب الرشيد لإثراء التجارة وإنماء الاقتصاد .

وما من شك فإن هذه السياسة قد أتت أكلها ، إذ أصبحت
(بغداد) في عصر العباسيين سوقا رائجة لبضائع الشرق والغرب على
السواء ، وانتشرت بها أرباب الغايات في كل فن ، حتى قال عنها الزجاج:
بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية (٧٤) .

ولعل رحلات السندباد البحري - الواردة في كتاب ألف ليلة وليلة والتي ترجع إلى عصر الرشيد - كان لها نصيب في هذا الرواج ، إذ أوضحت أن التجار المسلمين خرجوا في رحلات بحرية من بغداد إلى شبه جزيرة ملقا (الملايو) وكذلك إلى الصين للحصول على العطور والتوابل والحريير (٧٥) .

ومما هو جدير بالذكر أن تجار المسلمين في تلك الأونة كانت قلوبهم قد عمرت بالإيمان ، فامتألت صدورهم حماسة ورغبة في نشر دينهم وتعاليمه السمحة على طول الطريق في سفرهم ، مما أكسبهم وجالياتهم الحب والتقدير والاحترام من سكان البلاد والسلطات ؛ لصدقهم في أعمالهم ، ولا أدل على ذلك من تمتع بعضهم ممن أقام بأرض الصين في مدينة (خانفو) كانتون جنوبي شنغهاي ، بحق تعيين قاضي مسلم لهم يحكم بينهم حسب الشريعة الإسلامية ، كذلك منحوا جوازات تسمح لهم بالتنقل بين أرجاء البلاد متبادلين التجارة فيها (٧٦) .

لم تقتصر هذه الامتيازات على تجار المسلمين بأرض الصين ، وإنما تعدتها إلى الهند أيضاً ؛ فيذكر أن كثيراً من ملوكهم كانوا يراعون مصالح العرب ، ولعل أحدهم ويدعى (زمورن كيومان برمال Zamorin Ueroman Permal) كان دليلاً على ذلك ، فقد اعتنق الإسلام وبعضاً من أمراء الملبار ، وقاموا بتقديم خدمات للعرب المسلمين إذ أذنوا لهم بإقامة المنشآت وبناء المساجد على ما يقيمون من الأرض ، ونترك المسعودي ليحدثنا عن ذلك فيقول : " وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا وذلك في سنة ٣٠٤ هـ ،

والملك يؤمنذ على صيمور المعروف بحاج ، وبها يؤمنذ من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعماتيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تاهل وقطن في تلك البلاد ، وفيها خلق من وجوه التجار مثل : موسى بن اسحاق الصندالوني وعلى الهزق يمومند ، أبو سعيد معروف بن زكريا ، وتفسير الهزيمة يراد به رئاسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه ، ويعني قولنا البياسرة يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند " (٧٧) .

وعلى الرغم من مشاهدة المسعودي المتأخرة بعض الشيء عن فترة بحثنا إلا أنها تشير إلى جذور هذا الجيل المولد ، مما يؤكد وجود آبائهم وأجدادهم من قبل .

وهكذا رأينا كيف كانت مرونة الخلفاء العباسيين ، وما أسدوه من خدمات جليلة للنهوض باقتصاديات بلادهم في الزراعة والصناعة والتجارة ، حتى غدت عاصمتهم محطاً لأنظار العالم يهرع إليها التجار من كل صوب وحذب ، ويرومها من يريدون أن ينهلوا من ينابيع غيرهم التجارية ، والوقوف على مدى ذوقهم ورقيقهم ، ولا شك أن هذا العمل جعل من بغداد كما قال الزجاج حاضرة إلينا ، ولا ننسى أن هذا الثراء ، وما كان عليه البلاط العباسي من الأبهة والعظمة ، والفرش الوثيرة ، قد دفع بالمسلمين إلى الوصول إلى أماكن متعددة لجلب ما على ثمنه وخف وزنه حتى وصلوا إلى بلاد الروس ، وخير دليل على ذلك وجود العديد من قطع العملة على ساحل البلطيق تعود إلى العصر العباسي الأول (٧٨) .

وخير ما نختتم به هذه العجالة الاقتصادية هو قول الخليفة
المعتصم تعبيراً عن حبه للعمارة : " إن فيها أمورا محدودة ، فأولها
عمران الأرض التي يحيى بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر
الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ويتسع
المعاش ، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعاً
متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءت بعد سنة أحد عشر درهماً فلا
تؤامرني فيه " (٧٩) .

ولا شك أن في هذا النص دليلاً على حرص المعتصم على رغبته
في زيادة اقتصاديات بلاده مهما كانت ضالة هذه الزيادة ، كما يعبر أيضاً
عن المرونة التي تحلى بها إذ طلب من وزيره أن يتجاوزها ولا يرجع إليه
في أمر يعود بالنفع على البلاد .

تلك عجالة سريعة عن جهود الخلفاء العباسيين ومرونتهم في
المجال الاقتصادي لننتقل بعدئذ إلى تلك الجهود في المجال الاجتماعي .

* * *

الفصل الثالث

في المجال الاجتماعي

الفصل الثالث

في المجال الاجتماعي

تمهيد :

أينما وجد الإنسان تكون العلاقات الاجتماعية ، وهذا أمر بديهي فحياته غالباً ما تمتلئ بالمتناقضات التي تحتاج إلى مثل هذه العلاقة ، فهناك الفرح والحزن ، والشفاء والمرض ، والتولية والعزل ، والحياة والموت ، والمصاهرات والمحالفات وغيرها .

ففي العصر القديم تشير رسائل تل العمارنة * إلى عدد من التهناني والتعازي ، وتبادل الهدايا وحسن العلاقات ، والمصاهرات والمحالفات ، بين مصر ومعاصريها كمملكة بابل وأشور وقبرص وغيرها .

وفي العصر الوسيط نلمح أيضاً مثل هذه العلاقات ؛ فهذا هو عبد

* تل العمارنة : هذا المكان كان يسمى في الأصل (التل) ، وهو قرية صغيرة ، بيد أن علماء الآثار أطلقوا عليه : تل العمارنة نسبة للقبيلة العربية التي سكنت هذه القرية وهي بني عمران .
وقال السويدي في كتابه (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) : آل عمران : بطن من ثعلبة من طيء منازلهم مشارق الديار المصرية ومغارب الديار الشامية . راجع :
١- السويدي : محمد أمين البغدادي ، سبائك الذهب ص ٢٧٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان .
٢- هامش كتاب (مصر القديمة) لسليم حسن ، ج٥ ص ٣٤٦ . دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .

المطلب بن هاشم يتزعم وفداً للعرب إلى (معد يكرب بن سيف) ملك اليمن مهنيين إياه بعودة الملك إليه .

يقول المسعودي : " إن وفداً من العرب قدم اليمن ليـهـنئ معد يكرب بارتقائه السلطة ، وقد ضم هنا الوفد كل من : عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمّية بن عبد شمس ، وخويلد بن أسد بن عبد العزي ، وأبو زمعة وغيرهم . وما أن وصلوا اليمن حتى دخلوا إليه وهو في أعلى قصره المسمى (غمدان) بمدينة صنعاء والملوك وأبناء الملوك عن يمينه ويساره .

وحينذاك تكلم الخطباء : فوقف عبد المطلب بن هاشم وأثنى على الملك وأعلا من قدره وشأنه ، ثم هنأ بعودة السلطة إليه ، ومن أقواله : " إن الله جل جلاله قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً شامخاً باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته . . . وثبت أصله وبعد فرعـه في أكرم معدن . . . وأنت أيها الملك ذروة العرب الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد . . . سلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير خلف . . . نحن أهل حرم الله ، وسدنة بيته أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فرحنا ، ونحن وفد التهنة لا وفد المرزنة . فقال الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فقال الملك معد يكرب بن سيف : ابن اختنا ؟ قال نعم : قال : أدنوه مني ، فادنى ثم أقبل عليه وعلى الوفد فقال لهم : مرحباً وأهلاً . . . قد سمع الملك مقالـتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار لكم الكرامة ما أقمتـم والحباء إذا ظعنتم " (٨٠) .

وحينما نزل القرآن الكريم حثت آياته المباركة على الكثير من هذه العلاقات ؛ كاحترام الضيف ، وتأمين الموفد وحمايته ، والدعوة إلى المحبة والبعد عن التباغض والتحاسد ، والدعوة إلى الترابط بين شخص المجتمع ، والتعاون بين الناس على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، واحترام عقيدة وفكر الآخرين وغير ذلك من العلاقات الاجتماعية التي تترعرع بها آيات القرآن الكريم .

وها هو سيدنا محمد " صلى الله عليه وسلم " يضرب لنا المثل في حسن العلاقات الاجتماعية والصلات الحضارية ، بقبوله هدية قبرس (المقوقس) حاكم مصر عند مراسلته له ، كما سمح " صلى الله عليه وسلم " لوفد نجران بإقامة شعائره الخاصة بمسجد المدينة دون التعرض لهم بأدنى أذى .

وها هي زوجته سيدنا عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " تتبادل الهدايا مع زوجه هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية ، وها هو الوليد بن عبد الملك يستقبل وفداً من ملك سرنديب يتكون من ثماني سفن تحمل الهدايا الثمينة والمجوهرات والعبيد والجواري وغير ذلك (٨١) .

ويذكر " المسعودي " أن عمر بن عبد العزيز قد أرسل وفداً إلى إمبراطور بيزنطة في أمر من مصالح المسلمين ؛ فاستقبل الوفد بكل الحفاوة والتقدير ، وأجيبوا أحسن إجابة إلى طلبهم ، وما أن نما إلى علم الإمبراطور وفاة الخليفة (عمر) حتى تأثر كثيراً لذلك وتحدث مع الوفد حديثاً يعلوه الحزن وأخذ يطري عليه ويقول : " لو أن أحداً بعد عيسى يحيى الموتى (بإذن الله) لظننت أنه يحيى الموتى " (٨٢) .

وعندما افتتح المسلمون بلاد الهند تركوا للهندوس معبداً بالمولتان Moulton كانوا يحجون إليه من كل بقاع الهند دون أدنى ، فاكثسبوا بهذا العمل ود ومحبة الأهالي لهم (٨٢) .

وبهذا التمهيد نكون قد أوضحنا بعضاً من جوانب الصلات الحضارية في العلاقات الاجتماعية قبيل الحديث عنها في العصر العباسي .

في العصر العباسي :-

أما في العصر العباسي فأول ما نلمحه (طاراث) - صاحب أرجاء البطريق - ذلك الوافد الذي قدم من قبل (ليو الرابع) إمبراطور بيزنطة ؛ إلى الخليفة المهدي العباسي مهنئاً إياه بالخلافة ، يقول الخطيب البغدادي : سأل يعقوب بن المهدي الفضل بن الربيع عن أرجاء البطريق فقال : " أخبرني إسحاق بن محمد بن إسحق قال له : من هذا البطريق الذي نسبت إليه هذه الإرجاء ؟ فقال الفضل : إن أباك رضي الله عنه لما أفضت إليه الخلافة قدم عليه وافد من الروم يهنئه فاستثناه ثم كلمه . . فقال الرومي أنني لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ، ولا غرض وإنما قدمت شوقاً إليه وإلى النظر إلى وجهه ، لأننا نجد في كتبنا أن الثالث من أهل بيت نبي هذه الأمة يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . فقال المهدي / قد سرني ما قلت ولك عندنا كل ما تحب ، ثم أمر الربيع بآتزاله وإكرامه فأقام مدة ، ثم خرج ينتزعه فمر بموضع الأرجاء فنظر إليه فقال للربيع أقرضني خمسمائة ألف درهم أبني بها مشتغلاً يؤدي

في السنة خمسمائة ألف درهم فقال أفعل ، ثم أخبر المهدي بما ذكر
فقال أعطه " (٨٤) .

وإذا ما وصلنا إلى عهد الخليفة (هارون الرشيد) لرأينا علاقاته
الاجتماعية تتعدد بين الشرق والغرب ؛ فيذكر (ابن عبد ربه) في عقده
أن ملك الهند بعث (لهارون الرشيد) : " بسيوف قلعية ، وكلاب
سيورية ، وثياب من ثياب الهند ، فلما أتته الرسل بالهدية ، أمر الأتراك
فصفوا صفيين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق ، وأذن للرسل
فدخلوا عليه ، فقال لهم : ما جئتم به ؟ فقالوا : هذه أشرف كسوة
بلدنا ، فأمر هارون القطاع بأن يقطع منها جلااً وبراقع كثيرة نحيله
فصلب الرسل على وجوههم ، وتذمموا ونكسوا رؤوسهم ، ثم قال لهم
الحاجب أما عندكم غير هذا ؟ قالوا له : هذه سيوف قلعية لا نظير لها ،
فدعا هارون بالصمصامة سيف عمرو بن معد يكرب ، قطعت به
السيوف بين يديه سيفاً سيفاً كما يقط الفجل ، من غير أن تتثنى له
شفرة ، ثم عرض عليهم حد السيف فإذا لا فل فيه ؟ فصلب القوم على
وجوههم . ثم قال لهم ما عندكم غير هذا ؟ قالوا ؟ : هذه كلاب سيورية
لا يلقاها سبع إلا عقرتة ، فقال لهم هارون ؛ فإن عندي سبعاً ، فإن
عقرتة فهي كما ذكرتم ، ثم أمر بالأسد فأخرج إليهم فلما نظروا إليه
خالهم ، وقالوا : ليس عندنا مثل هذا السبع في بلدنا : قال لهم هارون
هذه سباع بلدنا . قالوا فأرسلها عليه ، وكانت الأكلب ثلاثة ، فأرسلت
عليه فمزقته ، فأعجب بها هارون ، وقال لهم تمنوا في هذه الكلاب ما
شئتم من طرائف بلدنا ، قالوا ما نتمنى إلا السيف الذي قطعت به

سيوفنا ، قال لهم : هذا مما لا يجوز في ديننا أن نهادىكم بالسلاح ولولا ذلك ما بخلنا به عليكم ، ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم ، قالوا : ما نتمنى إلا به . قال : لا سبيل إليه ، ثم أمر لهم بتحف كثيرة وأحسن جائزتهم " (٨٥) .

ويستفاد من هذا النص عدة أمور منها : مدى المرونة واللباقة الحضارية واتساع الصدر والأفق التي تمتع بها هارون الرشيد ؛ فهو بعد لقائه بالوفد ، وحدث ما ذكرناه أنفا من تفوق الكلاب السيورية على سبعة نراه لا يغضب ، ولا يتعامل بغطرسة ، وإنما يتعامل بمنتهى المرونة السياسية ؛ فيطلب من رجال الوفد أن يتمنوا ما يريدون ، وهنا طلب الوفد (الصمصامة) وأصروا عليها ، عندئذ قال لهم (هارون الرشيد) أنه في ديننا لا نهادي سلاحنا فاطلبوا غيرها لكنهم أصروا على طلبهم وعندئذ أمر لهم بالهدايا وأحسن جائزتهم .

ويذكر (المباركوري) أن بعض ملوك الهند أهدوا هارون الرشيد : " هدايا جليلة في جملتها قضيب زمرد أطول من الذراع ، وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر ، لا قدر له من النفاسة فوهبه لأم جعفر زبيدة بنت جعفر زوجته ، وانتقل منها إلى الأمين بالله ، ثم إلى أخيه المأمون ، ثم صار إلى المعتصم بالله بعده " ويستطرد المباركوري قائلا : " جلس المعتصم بالله يوما ، فشرب وعنده ندماء ، فطرح عليهم قضيب زمرد ، كان في يده ، طوله أكثر من ذراع ، وقال : هل فيكم من يعرف هذا القضيب فكل نظر إليه ، وقال : لا أعرفه حتى صار إلى عبد الله بن محمد المخلوع فقال : نعم يا أمير المؤمنين هذا

قضيب أهداه ملك الهند إلى الرشيد من جملة هدايا أنفذها إليه ، فوهبه الرشيد لزبيدة ، ووهبته لأبي وهو صبي ، فكان يلعب به ، وكان على رأسه طائر ياقوت أحمر قيمته مائة ألف دينار ، ولست أراه ، فأمر المعتصم بطلبه ، وتوعد الخزان بالقتل إن لم يحضروه من ساعته ، فطلب وركب على القضيب من ساعته ، وجاءوا به إليه " (٨٦) .

وهكذا أثبت لنا هذا النص عمق العلاقات الودية الاجتماعية مع ملوك الهند ، وفي نفس الوقت أثبت لنا محافظة المعتصم على تراث آبائه ، فضلاً عن أن تواتر الرواية على لسان (عبد الله بن الأمين) يؤكد مدى صدقها .

وعلى صعيد آخر يذكر الطبري أن (هارون الرشيد) بعد فتحها (هرقله) من أراضي الدولة البيزنطية عام ١٩٠ هـ ، وأخذ الجزية والخراج من (نقفور) إمبراطور بيزنطة ؛ استجاب لطلب الإمبراطور في جارية من سبي هرقله ، إذ أرسل إليه الإمبراطور كتاباً مع بطريقين من عظماء بطارقته جاء فيه : " لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم ، سلام عليكم ، أما بعد أيها الملك ، فإن لي عليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك ، هينة يسيرة ، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقله ، كنت قد خطبتها على ابني ، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، واستهداه أيضاً طبيباً وسرادقاً من سرادقاته ؛ فأمر الرشيد بطلب الجارية ، فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مصرية الذي كان نازلاً فيه ، وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول (نقفور)

وبعث إليه بما سأل من العطر ، وبعث إليه من التمور . . والزبيب
والترياق ، فسلم ذلك كله إليه رسول الرشيد ، فأعطاه نقفور وقر دراهم
إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ، دمانه ثوب
ديباج ، ومائتي ثوب بزيون ، واثنى عشر بازيا ، وأربعة كلاب من
كلاب الصيد ، وثلاثة برازين " (٨٧) .

وذلك نبل أخلاقي ورقي حضاري رفيع المستوى ؛ فبالأمس
القريب كان الرشيد قد تلقى خطاباً استفزازياً من (نقفور) كان على أثره
زحفه إلى الأراضي البيزنطية والإيقاع بنقفور وجنده ، واليوم يتلقى
خطاباً وهو يفتتح هرقله يلتمس فيه (نقفور) إجابته إلى طلبه ؛ وبالفعل
يجيبه (الرشيد) ليعطي لنا درساً في الصلات الحضارية ، إذ أنه في
الوقت الذي تشن فيه الحروب كان للجانب الاجتماعي احترامه .

وإذا كنا قد أشرنا إلى مرونة الرشيد في الجانب الاجتماعي تجاه
الهند ، والدولة البيزنطية ، فإنه يجب أن لا ننسى مثل هذه المرونة التي
انتهجها مع (شارلمان) إمبراطور الدولة الكارولنجية ، التي أوضحها
إينهارد وغيره ، والتي ذكرناها من قبل ، لتدل دلالة قاطعة على ما تمتع
به هارون الرشيد من مرونة متنوعة في جانبها الاجتماعي .

كذلك لا يفوتنا ذكر الهدايا التي تبودلت بين (رهمي) ملك
الهند ، والخليفة المأمون ؛ فيذكر (المبار كيوري) أن (رهمي) أرسل
إلى المأمون كتاباً على سبيل الهدية عرف (بصفوة الأذهان) ، مع بعض
الهدايا الأخرى مثل : " جام ياقوت أحمر ، فتحه شيرفي غلظ الأصبع
مملوء دراً وزن كل درة مثقال ، والعدة مائة درة ، وفرشاً في جلد حية

تكون في وادي المهرج . . . ووشى جيدها دارات سوء على قدر
الدرهم ، وفي وسطها نقط بيض مغروزة بالدرد ، ومصليات ثلاثة
بوساندها من ريش طائر يقال له (المستدل) إذا طرحت في النار لم
تحترق وفراوزها در ياقوت أحمر ، ووزن مائة مثقال عوداً رطباً . . .
وثلاثة وثلاثين منا كافوراً محبباً كل حبة منه مثل الفستقة وأكبر من
اللوزة مع جارية سنديّة طولها سبعة أذرع تسحب شعرها حسنة
البشرة . . . " . وقد رد المأمون على هذه الهدية فأرسل إلى (رهمي)
كتاباً بعنوان (ديوان الألباب وبستان نوادر العقول) ، مع بعض الهدايا
التي شملت " فارساً بفرسه ، وجميع آلاته من عقيق ، وقيل بل فارساً
بفرسه من عنبر شحري أشهب ومائدة جزع أرضها بيضاء ، وفيها
خطوط سود وحمرة وخضر وسعتها ثلاثة أشجار وغلظها أصبعان ،
وأرجلها من ذهب . . . وخمسة أصناف من الكوة من كل صنف مائة
ثوب من بياض مصر ، وخز السويس ، ووشى اليمين والإسكندرية ،
وملحم خراسان ، وديباج خراسان وفرش تدمر . . . ومائة طنفسة حبرية
بوساندها كل ذلك خز ، وفرش خز سنوسي ، وجام زجاج فرعوني غلظة
أصبع ، وفتحة شبر ونصف في وسطه صورة أسد نابت ، وأمامه رجل
برك على ركبته ، وقد أعرق السهم في القوس نحو الأسد " (٨٨) .

وهكذا تعددت الهدايا بين الخليفة (المأمون) ، ورهمي ملك
الهند ، وإن دلت على شيء فإنما تدل على حسن الصلات الحضارية
الراقية في جانبها الاجتماعي بين الطرفين ؛ إذ تبادلوا كتاب بكتاب ، وهدايا
بهدايا ، وإن دلت هدايا المأمون على اتساع ثروات بلاده ، كما ألمحت

إلى أن المسلمين لا ينسون واجبهم في الدفاع عن دينهم وبلادهم كما ظهر ذلك واضحاً من صورة الأسد النابت الذي صوب إليه سهم من جانب إحدى الفرسان .

ويذكر ابن الفراء أن (باسل) ، الإمبراطور البيزنطي أرسل إلى الخليفة المعتصم رسولا معه كتاب ؛ رجا فيه المعتصم أن ينعم عليه بإطلاق سراح بطارفته البالغ عددهم مائة وخمسون بطريقاً ، وهو على أتم استعداد بأن يفدي الواحد منهم بمائة من المسلمين ، وقد وجه مع الرسول أربعين ثوباً من الديباج المذهب طول كل منها أربعون ذراعاً في عرض عشرين ، وبطريقاً وخادماً وجماعة معهما ، وبعد وصولهم قرأ محمد بن عبد الملك الزيات الكتاب ، ولم يدخلهم إلى أمير المؤمنين قسائلاً أنه مشغول .

وعلى ذلك بقى الوفد حوالي ستة أشهر ، ولما أذن للرسول بالدخول إلى الخليفة المعتصم ، قال له الخليفة لقد أضربنا بك لطول مقامك . فقال : كلا إن طول المقام أوجب الذمام ، وما ضربي مقام قرب منك وأشهديني نعم الله عندك ، فأعجب المعتصم بما ترجم كلام الرسول وقبل هديته . (٨٩)

وبهذه الكلمات نختتم ما أتيج لنا من معلومات عن الصلات الحضارية في جانبها الاجتماعي ، والتي تنوعت كما رأينا ، بين الخلفاء العباسيين وكل من الهند وبيزنطة ودولة الفرنجة ، لننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصلات الحضارية في المجال الثقافي .

الفصل الرابع

في المجال الثقافي

الفصل الرابع

في المجال الثقافي

تمهيد :

لاشك أن الثقافة لغة الحضارة وحضارة اللغة ، معول البناء ، ميزان الرخاء ، مصباح الضياء . ومن هنا فقد عنى الإسلام بالعلم والدعوة له ، إذ يقول الحق تبارك وتعالى في أول ما نزل من قرآنه الكريم على قلب سيدنا محمد " صلى الله عليه وسلم " : " اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم " (٩٠) وهي دعوة صريحة للعلم وطرق أبوابه ، وارتياذ دروبه ، واقتحام مجاهله .

وفي سورة آل عمران يقول عز وجل " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً على جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففطنا عذاب النار " (٩١) .

وتلك آيات بينات تدعو إلى التفكير والتدبير وإعمال العقل والبحث على البحث فيما خلق الله ، والإيمان بمشيئته وطلاقة قدرته ، وهناك العديد من آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى العلم والأخذ بأسبابه ،

والجهاد في سبيله حتى يرقى الإنسان إلى مستوى التكريم الذي حظى به من عند ربه .

وقد دعا الرسول " صلى الله عليه وسلم " إلى العلم ، والإرتواء من ينابيع الثقافة ؛ فيؤثر عنه قوله " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " وقوله " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " وكان - صلى الله عليه وسلم - دائماً يحث الصحابة على تعلم القراءة والكتابة ومعرفة لغة الغير ، فضلاً عن حرصه الشديد على أن يكون للمرأة من ذلك حظها الموفور ، ولا ننسى موقفه - صلى الله عليه وسلم - من أسرى بدر ممن لم يكن بوسعه دفع الفدية أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين ، ليعطي لنا درساً عملياً في الدعوة إلى العلم والمعرفة .

وقد أبحرت سفينة الثقافة عابرة العصرين الراشدي والأموي حتى حطت رحالها على بر الخلافة العباسية ، فوجدت التربة عندئذ مهياة خصبة لرقى أكبر واتساع أرحب ، وثرأ فكري منقطع النظير ، ذلك لأن المسلمين بثرأهم المادي ، ووضعهم السياسي فتحت لهم كنوز العلم شوقاً وغرباً ، تتفجر ينابيعها لتروي ظمأ المسلمين الذين تمثلوها وأضافوا إليها وصبغوها بصبغة إسلامية ، فكانت حضارتهم الإسلامية ذائعة الصيت هي باب الرقي للعالم أجمع .

وحتى لا ننزلق كثيراً نترك المجال لنيكلسون فيذكر أن المسلمين في العصر العباسي انطلقوا يجوبون بلاد القارات الثلاث ، بحثاً عن ينابيع الثقافة محلّقين فوق بساطينها كالنحل ، ليعودوا بعد ذلك بالشهد إلى طلابهم المتعطشين له ، مصنفين أعمالهم بما بذلوه من جهد متواصل ، حتى

أصبح أشبه ما يكون بدوائر المعارف التي كان لها أكبر الأثر في نقل هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل (٩٢) .

رعاية الخلفاء العباسيين للعلم والثقافة :

الجدير بالذكر أن الخلفاء العباسيون كان لهم دورهم الإيجابي والملحوظ في إنماء شجرة الثقافة ، والرقي بالحياة العلمية في بلادهم حتى صارت عاصمتهم محط أنظار العالم ، إليها تطير الثقافات ، ومن ينابيعها يرتشف الظمأى والمتعطشون للعلم والمعرفة ، وبالتالي كانت (بغداد) حديث الدنيا .

وطبيعي لم يكن ذلك ليتأتى لها إلا بفضل ما بذله الخلفاء العباسيون من جهد متواصل ، وحب للثقافة ، ورعاية للعلم والعلماء .

فها هو الخليفة (المنصور) يختار لابنه (المهدي) الشرفي بن القطامي معلما له ، ويوصيه بأن يعلمه أخبار العرب ، ومكارم الأخلاق ، وقراءة الأشعار ، والنهل من ينابيع الأدب حتى يصير رجلا متحضرا ، كذلك نرى الخليفة (هارون الرشيد) يعهد في تعليم ابنه (الأمين) إلى (الأحمر النحوي) ثم (الكسائي) وفي تعليم ابنه (المأمون) إلى (اليزيدي) ، و (سيبويه) (٩٣) .

ويذكر المسعودي وصية (لهارون الرشيد) إلى الأحمر النحوي في تأديب ولده (محمد الأمين) جاء فيها " قال الأحمر النحوي : بعث إلي الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين ، فلما دخلت قال : يا أحمر إن

أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمره قلبه ، فصير يدل عليه مبسوطه وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، اقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار وعلمه السفن ، وبصره مواقع الكلام وبداه ، وامنع الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذ دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت تغتم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمنع في مسامحته فيستحل الفراغ ويألفه ، وفوق ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة " (٩٤) .

ومما يؤثر عن الرشيد حسن ملاطفته للأصمعي وإجلاله حتى إذا خلا به سألته واستفاد من علمه وأدبه ، وكان كثيراً ما يمنحه الجوائز القيمة ، وإمعاناً في احترام الرشيد لسلطان العلم وهيبته يروي أنه ذات مرة تناول معه الطعام (أبو معاوية الضرير) ، وبالانتهاء منه قام (أبو معاوية) لغسل يديه ، فتناول الرشيد الإبريق وصب الماء على يدي (أبي معاوية) والرجل بالطبع لا يعلم من يفعل ذلك ، وعندئذ قال له الرشيد : أتبدري يا أبا معاوية من الذي يصب الماء على يديك ، قال لا ، قال : أنا الخليفة ، قال : أبو معاوية أنت يا أمير أعمال المؤمنين قال نعم إجلالا للعلم (٩٥) .

وتلك سمة حضارية في هذا لأن للعلم هيبته وسلطانه وإجلال القائمين عليه لما يبذلونه من جهد في تنوير عقول غيرهم .

وإذا ما حانت منا التفاته إلى (المأمون) لرأيناه أيضاً يميل للعلم ويجل أهله ويحتفي بهم ، فيروى أنه عهد (للفراء) بتعليم ولديه النحو ، ويذكر أنه ذات مرة أراد الفراء أن ينهض بعد الدرس ، وما إن بحث عن نعليه حتى حاولا ولدي المأمون أن يقدماه له ، واختلفا فيمن يحظى بهذا التقديم ثم اتفقا على أن يقدم كلا منهما واحدة ، ولما نما إلى علم المأمون ذلك استدعاه ، فلما دخل عليه قال له المأمون : من أعز الناس ؟ قال : لا أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين ، فقال : بل من إذا نهض تقاثل على تقديم نعله ولما عهد المسلمين ، حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردا ، قال : يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها (٩٦) .

ومما يذكر عن المأمون أنه كان يحث الناس على قراءة الكتب ويرغبهم في اقتنائها ، وكان غالباً ما يجتمع بالعلماء والحكماء ، ويأتي بهم ويناضرهم ، وبالطبع لم يكن هذا بمستغرب عن المأمون ، فهو أعلم خلفاء بني العباس لا جدال في هذا ، له باع في اللغة والشريعة ، والفلسفة ، جالس المتكلمين ، وقرب أهل الجدليين المبرزين والمنظرين وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فرغب الناس في صبغة النظر ، وتعلموا البحث والجدل (٩٧) .

ويأتي الخليفة (الواثق) ليستكمل جهود سابقه في رعاية العلم ، فيعقد مجلساً للفلسفة والطب يحضره من الفلاسفة والمتطبيين ابن بختيشوع وابن ماسويه ، وميخائيل ، وحنين بن إسحاق وسلمون وغيرهم ، ويدور

فيه الحوار بعد أطروحات الوثائق حول الطب ، والفلسفة والطبيعيات والإلهيات وغيرها (٩٨) .

تلك إطلالة يسيرة على رعاية الخلفاء العباسيين للعلم وأهله ، وإجلالهم لعطاءه المتدفق ، الذي يسري في دم العلماء ، ويغطي بظلاله الوارفه أبناء المجتمع ، ويكون مطيتهم السهلة إلى الرقي والتقدم الحضاري .

الخلفاء العباسيون وصلاتهم لإشراء الثقافة :

وفضلاً عن رعاية الخلفاء العباسيين للعلم وأهله داخل بلادهم كما رأينا ، كانت لهم علاقاتهم وصلاتهم في هذا المجال مع بعض البلدان الأخرى ، فتذكر (زيغريد هونكة) : أنه في عام ١٥٦ هـ وفد إلى بلاط الخليفة المنصور فلقي من الهند اسمه (كنكه Kankah) وكان عالماً في طرق الحسابات الهندية المعروفة باسم سند هند Sind Hind والتي تهتم بحركات الكواكب . وكان يحمل كتاباً أخذه من المجموعة التي تحمل اسم الملك (فيجار Figar) وقد أمر المنصور بترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، وبأن يؤلف كتاب على نهجه يشرح للعرب سير الكواكب ، وعهد بهذا العمل إلى محمد بن إبراهيم الفزاري الذي ألف على نهجه كتاباً يعرفه الفلكيون باسم (السند هند الكبير) ، وكلمة السند هذه تعني باللغة العربية (الخلود) وقد أخذ العلماء بهذا الكتاب حتى عصر المأمون حيث أعاد محمد بن موسى الخوارزمي كتابته وأضاف إليه (٩٩) .

وتضيف (هونكة) أن الكتاب المذكور الذي أحضره هذا الهندي إلى بلاط الخليفة ما هو إلا كتاب Siddihante لمؤلفه " براهما جوبتا " وعرف في العربية بعد ترجمته باسم (سند هند) وقد لاقى نجاحاً كبيراً ، وأسهم في أبحاث الفلك التي عنى بها الخلفاء العباسيون على وجه الخصوص .

ولا شك أن الوافد (كنكة) وكتابه يمثلان علاقة وصلات حضارية في مجال الثقافة بين الهند وبغداد .

وللاستفادة في الطب من علم مدرسة (جند يسابور) جنوب غرب إيران ، ويذكر الطبري وغيره أن الخليفة المنصور قد اعتلت صحته حوالي عام ١٤٩ هـ / ٧٦٥ م ، وكان لا يستمرئ طعاماً لاضطراب في معدته ، لذلك كان يأخذ كثيراً من (الجوار شنات) وهي أدوية هاضمة على أيدي مجموعة من أطبائه إلا أن صحته لم تتحسن كثيراً ، عندئذ أشير عليه باستدعاء (جورجيس بن بختيشوع) رئيس أطباء (جند يسابور) أشهر مدارس الطب في تلك الأيام ، فأرسل المنصور في طلبه فترك (جورجيس) أمر المستشفى لولده (بختيشوع) واصطحب معه اثنين من تلاميذه وقدم إلى بغداد (١٠٠) ، وقد نجح جورجيس هذا بعد محاوراة كلامية بينه وبين الخليفة في تشخيص مرضه وكتابة علاج له تحسنت على أثره صحته بعد تناوله ، وقد سر المنصور لذلك ، ومنعه من الرجوع إلى بلده .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى حب الاستفادة من الخبرة الأجنبية ، إذ استدعى المنصور ذلك الطبيب من (جند يسابور)

وإن كان الطبري يذكر أنه من الهند للاستفادة بعلمه في علاج مرض ألم به ، وقد أسهم هذا العمل في تنشيط حركة الترجمة على أيدي النساطرة وغيرهم ، وتلك ثمرة إيجابية للصلات الحضارية .

ويذكر الدكتور " العدوي " أن الخليفة المنصور بعث إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يطلب منه كتباً يونانية فأجابته الإمبراطور إلى طلبه وأرسل إليه مجموعة من الكتب من بينها كتاب إقليدس ^(١٠١) وهو جو مطريار معناه الهندسة كما قال بذلك ابن النديم ^(١٠٢) .

ويضيف الدكتور العدوي أنه إلى عهد المنصور ترجع المحاولات الأولى للترجمة من اليونانية إلى العربية ، ومن اضطلع بذلك يحيى بن البطريق الذي ترجم الكثير من كتب جالينوس وأبقراط في الطب ، على أن كثيراً من الكتب ترجمت في ذلك الوقت وأعيد ترجمتها أو مراجعتها فيما بعد زمن الرشيد والمأمون ^(١٠٣) .

وفي عهد هارون الرشيد اشتهر ابن بختيشوع الطبيب الذي نبغ في علم النفس ، ومهر في تشخيص الأمراض العصبية حتى عينه الرشيد رئيساً للأطباء في حاشيته ^(١٠٤) . وتلك مرونة من جانب الرشيد فعلى الرغم من أن ابن بختيشوع لم يكن عربياً إلا أنه اكفأته وعلمه ولاه رئاسة أطبائه .

ويذكر الطبري أن الرشيد اعتل علة لم تنجح معها محاولات أطبائه في إزالتها ، عندئذ قال له أبو عمر الأعجمي " بالهند طبيب يقال له (منكة) رأيتهم يقدمونه على كل من بالهند ، وهو أحد عبادهم

وفلاسفتهم فلو بعث إليه أمير المؤمنين لعل الله أن يبعث له الشفاء على يده " (١٠٥) .

فوجه الرشيد من جاء به إليه فقدم له هذا الطبيب العلاج الذي برئ به الرشيد من علته فأجرى له الأرزاق الواسعة والأموال الكافية .

ويذكر صاحب الفهرست أن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد أوفد إلى بلاد الهند رجلاً ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم ، وأن يكتب له أديانهم " (١٠٦) .

وهكذا رأينا كيف استفاد الخلفاء العباسيون من ثقافة الهند وجنود يسابور وبيزنطة ، في الطب والرياضيات ، كما أوضحنا ذلك في عهد كل من المنصور ، الرشيد ، وزيادة في الفائدة لم تكن هذه الجهود وقفاً على الخلفاء فحسب ، بل تعدتها إلى الوزراء ، فقد أرسل يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد رجلاً إلى الهند ليحضر إليه بعض العقاقير من هناك ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على توجه حضاري كبير للخلافة العباسية .

ولكي يتأكد لنا هذا التوجه نرى الخليفة هارون الرشيد الذي استفاد من خبرة وثقافة الهند الطبية ، يولي وجهه شطر الثقافة اليونانية ذلك التراث الذي ورثته بيزنطة في محاولة منه للاستفادة بهذا التراث ، فيذكر أنه أثناء افتتاحه لأنقرة وعمورية وغيرهما من أراضي الدولة البيزنطية عثر هناك على كمية كبيرة من الكتب فأمر بحملها إلى بغداد ؛ وأمر طبيبه (يحيى بن ماسويه) بترجمتها ، فأنجز يحيى هذه المهمة ، وكانت

هذه الكتب في جملتها كتباً للطب ، هذا وقد ترجم أيام الرشيد كتب (إقليدس) في الهندسة على يد (الحجاج بن يوسف بن مطر) وأعيدت ترجمته مرة أخرى أيام الخليفة المأمون (١٠٧) .

وحينما نصل إلى عهد الخليفة المأمون نرى أن بغداد قد زخرت بالثقافات والعلوم ، وازدحمت بكل ألوان المعارف والفنون ، رحل إليها العلماء ، وتبارى في رحابها الفقهاء والحكماء ، وكيف لا ؟ وخليفتها (المأمون) أعلم بني العباس بالفقه والكلام ، جليساً للعلماء ، راعياً للثقافة محباً لها ، كان من أنصار حرية الرأي والفكر ، فتبارى في رحاب بلاطه العلماء وعقدت بها مجالس الحكماء والفقهاء .

ولشغله بالعلم وتطلعه إلى التعرف على ما تحتويه كتب الإغريق ، كانت بينه وبين (ليو الأرمني) ٨١٣ - ٨٢٠ م إمبراطور بيزنطة مراسلات طلب فيها السماح لوفده وعلمائه في الحصول على مصنفات الإغريق في الفلسفة والهندسة والطب وغيرها ، فأجابته الإمبراطور لذلك ، وضم وفد المأمون إذ ذاك أشهر علماء عصره مثل : الحجاج بن يوسف بن مطر وابن البطريق وسلماء ، وصاحب بيت الحكمة ، وقد اختار هؤلاء مجموعة من الكتب عادوا بها إلى بغداد ليبدأ العلماء في ترجمتها تحت إشراف قسطا ابن لوقا (١٠٨) .

ومما يجدر ذكره أن السريان كان لهم دورهم الملحوظ في ترجمة الكتب الإغريقية إلى لغتهم أولاً ، ثم إلى اللغة العربية ، فكتاب الهرمنطيقا لأرسطو ترجم أولاً إلى السريانية على يد (حنين بن اسحق) ، ثم ترجم إلى العربية على يد (اسحق بن حنين) وغير ذلك من الكتب .

ولكي يواكب المأمون نشاطه الفكري وولعه بالثقافة ، والوقوف على آخر ما وصلت إليه القسطنطينية في هذا المجال ، نراه قد سمع بعالم شهير في الرياضيات اسمه (ليو) ذاع صيته من خلال تلاميذه ، فلم يتوان المأمون في طلب هذا العالم إلى بلاده ، وأرسل في ذلك إلى الإمبراطور (ثيوفيل) للسماح له بالذهاب إلى بغداد ، لكن (ثيوفيل) اعتبر علم (ليو) من الأسرار التي يجب أن لا تذاع في بغداد ، فلم يجب (المأمون) إلى طلبه على الرغم من عرضه المغوي ؛ صلحاً دائماً وألف قطعة ذهبية (١٠٩) .

ومما يذكر من جهود المأمون أيضاً أنه حينما تم الصلح بينه وبين ملك (قبرص) طلب الأول من الثاني أن يرسل إليه خزانة كتبه ، لكن الملك رفض بعد أن تشاور في الأمر مع خاصته ، إلا مطراناً واحداً كلن قد اقتنع بإرسالها وأقنع الملك بذلك فأرسلها معه ، وعندئذ سر المأمون لهذا الصنيع (١١٠) .

كذلك أوفد المأمون محمد بن موسى الخوارزمي أمين دار كتبه مع بعثته إلى أفغانستان ، ويبدو أن الخوارزمي قد تسلل إلى الهند ثم عاد إلى بغداد بعد إطلاعه على بعض الثقافات والعلوم ، ولا شك أن الخوارزمي كانت له شهرة واسعة النطاق لا سيما في علم الجبر والمثلثات والهندسة ، وعلم الجغرافيا وغيرها من المؤلفات ، وكان له فضله الذي لا ينكر على أوروبا وفي ذلك يمكن مراجعة بعض الكتب الآتية (١١١) .

ومما تجدر ملاحظته أنه في عهد المأمون لمع بنو موسى بن شاكر ، (محمد وأحمد وحسن) في سماء العلم ، وكان لهم جهودهم الوافرة ، ودورهم المبرز في إثراء الحياة العلمية ببغداد ، وعلى وجه الخصوص في علم الرياضيات ، إذ ألّفوا في مراكز (النقل) وهو علم يعرف منه كيفية استخراج ثقل الجسم المحمول ، والمراد بمركز النقل (حد في الجسم يتعادل عنده بالنسبة للحامل) (١١٢) .

ومما يذكر من عناية هؤلاء الأبناء بنقل الكتب اليونانية ، سافر أحدهم وهو (محمد) إلى أراضي الدولة البيزنطية للحصول على مخطوطات تبحث في الرياضيات والفلك ، وبالطبع عاد هذا العمل على بغداد بالتطوير الثقافي ، كما يغري لهم إرسالهم (حنين بن اسحق) وغيره إلى الدولة البيزنطية فجاءهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة ، والموسيقى ، والارتماطيقى ، والطب ، وكان قسطا بن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئا فنقله ونقل له . قال بذلك ابن النديم (١١٣) .

وفي عهد الخليفة الواثق ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ تنمو العلاقات الثقافية بين بغداد والقسطنطينية إلى درجة متميزة ؛ إذ أرسل الخليفة أحد علماء المسلمين بإذن من الإمبراطور ميخائيل الثالث إلى مدينة (أفسوس) لمشاهدة الكهف الذي حفظت به جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا زمن الإمبراطور (دقلديانوس) وللدليل على حسن العلاقة أوفد الإمبراطور دليلا لمهمة هذا العالم (١١٤) .

ولا شك أن زيارة الآثار والوقوف عليها إثراء كبير للثقافة وإنماء لشجرة العلم .

وهكذا رأينا من خلال ما تقدم كيف كان للخلافة العباسية في عصرها الذهبي صلاتها الحضارية المتميزة في عدد من المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي وصلت إلى درجة كبيرة من الرقي والنماء ، مما أثرى الدولة العباسية وجعل عاصمتها بغداد مكانا يتوق إليه الكثير والكثير من العلماء وغيرهم ، مما أسهم في إنماء شجرة الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص ، والحضارة العالمية على وجه العموم ، وبذلك يكون المسلمون قد أضافوا درة إلى جبين الحضارة الإنسانية .

* * *

حواشي البحث

حواشي البحث

(١) الطبري :

الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت
٣١٠هـ / ٩٢٢ م (تاريخ الأمم والملوك) ١٠ أجزاء تحقيق
الأستاذ : محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة / مطبعة دار
المعارف ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥ م ، ج٧ ، ص ٤٥٩ - حوادث
١٣٣هـ

GiBB: The Arab conquests in central asia p.96

- الصيني (بدر الدين حي) :

(العلاقات بين العرب والصين) الطبعة الأولى / مكتبة النهضة
المصرية بالقاهرة . ١٣٧هـ / ١٩٥٠ م . ص ٣٤ .

(٢) الصيني (بدر الدين حي) :

المرجع السابق ، ص ٣٦ - ٣٧ ، ١٨٥ .

(٣) الصيني (بدر الدين حي) :

المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٤) الطبري :

المصدر السابق ، ج٧ ، ص ٦١٤ ، حوادث ١٤٥هـ

(٥) ابن عبد ربه :

ت ٣٢٨ هـ (شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه
الأندلسي) العقد الفريد ، ج٤ ، ص ٢٦٣ . دار الفكر للطباعة
والنشر بيروت - لبنان - تحقيق محمد سيد العريان .

(٦) الطبري :

المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٣٣ - ٣٦ .

(٧) المباركوري (أظهر) :

الهند في عهد العباسيين ، دار الأنصار ، القاهرة
١٣٩٩هـ ، ص ١٧ .

(٨) الطبري :

المصدر السابق ، ج٧ ، ص ٤٩٧ ، ٥٠٠ .

(٩) الخطيب البغدادي :

(أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي) ت
٤٦٣ هـ : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص ٧٨ ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، لبنان .

(١٠) الطبري :

المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦ ، حوادث

: ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ هـ .

(١١) الدوري (عبد العزيز) :

العصر العباسي الأول ، بغداد ، منشورات دار المعلمين
العالية ، بغداد ١٩٤٥ م ، ص ٩٤ .

-حسن (حسن إبراهيم) :

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ٢ ،
ص ٢٣٢ ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٦٤ م .

- العدوي (إبراهيم أحمد) :

المسلمون والجرمان ، ص ٢٦٤ ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

(١٢) الطبري :

المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، حوادث

١٦٥ هـ .

- نورمان بينز :

الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب د/ حسين مؤنس ، ومحمد
يوسف زايد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة
١٩٥٠ م . ، ص ٣٦٢ .

- الجنزوري (عليه عبد السميع) :

الإمبراطورة إيرين ، ص ٣٣ - ٣٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية ،
القاهرة ١٩٨١ م .

(١٣) اليعقوبي (أحمد بن واضح اليعقوبي) ت ٢٨٤ هـ :

تاريخ اليعقوبي ، بيروت - لبنان ، ١٩٥٩ م ، ج ٢ ،
ص ٤٢٩ .

(١٤) الطبري :

المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٦٨ ، حوادث
١٨١ هـ .

(١٥) الطبري :

المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، حوادث
١٨٧ هـ .

- ابن الفراء (أبو علي الحسين بن محمد) :

رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق د/ صلاح
الدين المنجد ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٤١ .

(١٦) الطبري :

المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٠٨ ، حوادث ١٨٧ هـ .

(١٧) ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(١٨) الطبري :

المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٣٠٨ ، حوادث ١٨٧ هـ -

- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) :

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق وتعليق الشيخ

قاسم الشماخي الرفاعي ، دار القلم - بيروت - لبنان ، ط١ ،

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٩ م ، ج٨ ، ص ٣٠٨ .

- ابن الفراء :

نفس المصدر السابق والصفحة .

(١٩) الطبري :

المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

- ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢٠) الطبري :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، حوادث

١٨٧ هـ

- المسعودي :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

- ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٢١) الطبري :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٣٢٠ .

- المسعودي :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢٢) الطبري :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٢٣) لويس (أرشيبالد) :

القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط من

٥٠٠ - ١١٠٠ م ، ص ١٦٠ ، ١٦٢ ، ترجمة أحمد محمد

عيسى ، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال ، النهضة المصرية ،

القاهرة ١٩٦٠ م .

(٢٤) لويس أرشيبالد :

المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٢٥) المسعودي :

المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٦ .

(٢٦) شاكراً مصطفى :

في التاريخ العباسي ، ج١ ، ص ١٥٢ ، مطبعة
الجامعة السورية ، ١٩٥٧ م .

(٢٧) إينهارد :

سيرة شارلمان ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ، ترجمة د/ عادل
زيتون ، ط ١ ، دار إحسان ، دمشق ١٩٨٩ .

(٢٨) إينهارد :

المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢٩) وليم الصوري :

الحروب الصليبية ، ج١ ، ص ٦٧ ، ترجمة د/ حسن
حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١ م . (سلسلة
تاريخ المصريين ٤٥) .

(٣٠) الدوري (عبد العزيز) :

المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٦ .

(٣١) هـ . و . كارلس . ديفز :

شارلمان ، ترجمة د/ السيد الباز العريني ، ص ٢٩٢ ،
٢٩٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ م .

(٣٢) حسن (حسن إبراهيم) :

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ،
ج ٢ ، ص ٢٣٧ ، ط ٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤ م .

- المدور (جميل نخلة) :

حضارة الإسلام في دار السلام ، ص ٢٢٧ - ٢٣١ ،
مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٣٢ .

- حتى (فيليب) وآخرين :

تاريخ العرب مطول ، ج ١ ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ ، دار
الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ١٩٥٢ .

- أمين (أحمد) :

هارون الرشيد ، ص ١٩٨ - ٢٠٣ ، دار الهلال
بالقاهرة .

- العدوي (إبراهيم أحمد) :

المسلمون والجرمان ، ص ٢٦٥ - ٢٦٨ ، ط ١ ، دار

المعرفة ، القاهرة ١٩٦٠ .

- ماجد (عبد المنعم) :

العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،

ص ٧٧ - ٧٨ ، مكتبة الجامعة العربية - بيروت ، ١٩٦٦ م .

(٣٣) الطبري :

المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٦٢٣ ، ٦٢٥ .

- ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٨ - ٤٩

(٣٤) الطبري :

المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٦٢٨ .

(٣٥) الطبري :

نفس المصدر والجزء ، ص ٦٢٩ .

- المسعودي :

المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

(٣٦) الطبري :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٦٢٩ - ٦٣٠ .

(٣٧) الطبري :

المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ٥٥ .

- المسعودي :

المصدر السابق جـ ٤ ، ص ٥٨ - ٥٩

- ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٣٨) الطبري :

المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ١٤١ - ١٤٤ .

- فازيليف :

العرب والروم ، ص ١٧٥ - ١٧٨ ، ترجمة د/ محمد

عبد الهادي شعيرة ، مراجعة د/ فؤاد حسين علي ، دار الفكر
العربي ، القاهرة .

(٣٩) سورة القصص : آية ٧٧ .

(٤٠) سورة الجمعة : آية ١٠ .

(٤١) سورة الملك : آية ١٥ .

(٤٢) سورة المزمل : آية ٢٠ .

(٤٣) ابن خلدون :

عبد الرحمن ابن محمد خلدون ت ٨٠٨ هـ ، المقدمة
ج ٢ ، ص ٩٠٥ ، ٩٨٤ ، تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي ،
دار نهضة مصر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٩ م .

(٤٤) البغدادي (الخطيب) :

المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

- الحموي (ياقوت) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي
الرومي البغدادي ت ٦٢٦ هـ :

معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٤٥) البغدادي (الخطيب) :

المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٩ .

(٤٦) حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، ص ٣٧٥ .

(٤٧) أبو يوسف (القاضي) :

الخراج ، ص ٥٧ ، دار المعرفة للطباعة ، بيروت -
لبنان .

(٤٨) عمارة (محمد) :

قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية ،
ص ٥٥٣ ، ط ١ ، دار الشروق ١٩٩٣ م .

(٤٩) أبو يوسف :

المصدر السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٥٠) البغدادي (الخطيب) :

المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٥١) البغدادي (الخطيب) :

نفس المصدر والجزء ، ص ٩١ .

(٥٢) أبو يوسف :

المصدر السابق ، ص ٣ .

(٥٣) الطبري :

المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٥٦٨ ، ٥٧٦ .

(٥٤) الشاعر (فتحي) :

الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ص ١٠٢ ،
دار المعارف ، ١٩٩١ م .

(٥٥) الحموي (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١١٢ .

(٥٦) هايد : ف :

تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ،
جـ ١ ، ص ٤٦ ، ترجمة أحمد رضا ، مراجعة عز الدين فودة ،
القاهرة ، ١٩٨٥ م .

(٥٧) حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٥٨) حسن (حسن إبراهيم) :

نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٥٩) الحموي (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١ .

- هايد : ف :

المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٦ .

(٦٠) خسرو (ناصر) :

سفرنامه ، ص ٧٧ ، نقله إلى العربية د/ يحيى الخشاب ،
دار الكتاب الجديد ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

- حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

(٦١) حسن (حسن إبراهيم) :

نفس المرجع والجزء ، ص ٣١٠ .

(٦٢) الحموي (ياقوت) :

المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٤٨ .

-حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٣١٠ .

(٦٣) ابن هشام :

السيرة النبوية ، ج٤ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٦٤) لومباردو (موريس) :

الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة
الأولى ، ص ٢٥ ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، دار الفكر ،
دمشق .

(٦٥) العدوي (إبراهيم أحمد) :

الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، ص ١١٢ ،
مكتبة نهضة مصر القاهرة .

(٦٦) المسعودي :

المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

- خسرو ناصر :

المصدر السابق ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

- ف. هايد :

المرجع السابق ، ج١ ، ص ٤٣ .

- العدوي :

المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٦٧) الطبري :

المصدر السابق ، ج٧ ، ص ٦١٤ .

(٦٨) الطبري :

نفس المصدر والجزء ، ص ٦١٦-٦١٧ .

- الحموي (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٥٨ .

(٦٩) البغدادي (الخطيب) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

(٧٠) البغدادي :

نفس المرجع والجزء ، ص ٨٠ .

-حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٢

(٧١) الحموي (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٤٨ .

(٧٢) الطبري :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٢٣٤ .

(٧٣) المسعودي :

المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٧٤) الحموي (ياقوت) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٦١ .

(٧٥) ف . هايد :

المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

(٧٦) ف . هايد :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٧ .

(٧٧) المسعودي :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

(٧٨) ف. هايد :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٧٥ .

(٧٩) المسعودي :

المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٨ .

(٨٠) المسعودي :

نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٨١) النجرامى (محمد يوسف) :

العلاقات بين الهند والخلافة العباسية ، ص ٣٧ ،

بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩ م .

(٨٢) المسعودي :

المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٧٥ .

(٨٣) ف. هايد :

المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٠ .

(٨٤) البغدادي (الخطيب) :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٨٥) ابن عبد ربه :

المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٨٦) المباركوري (أظهر) :

المصدر السابق ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٨٧) الطبري :

المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٣٢١ ، حوادث ١٩٠ هـ

(٨٨) المباركوري :

المرجع السابق ، ص ٤٤ - ٤٧ .

(٨٩) ابن الفراء :

المصدر السابق ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٩٠) سورة العلق : الآيات ١ - ٥ .

(٩١) سورة آل عمران : الآيات ١٩٠ - ١٩١ .

(92) Nicholson: A Reynold Literary History of The Arabs
p.281,Cambridge 1930.

(٩٣) فراج (عز الدين) :

فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية ، ص ٣٧ دار
الفكر العربي ، القاهرة .

(٩٤) المسعودي :

المصدر السابق، جـ ٣ ، ص ٣٣٣ .

(٩٥) حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦١ .

- فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٩٦) الزيات (أحمد حسن) :

تاريخ الأدب العربي ، ص ٣٦١ ، القاهرة ، الطبعة
الرابعة والعشرون .

- فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٩٧) المسعودي :

المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٩٢ .

(٩٨) المسعودي :

المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٧٤-٧٨ .

(٩٩) حتى (فيليب) :

المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٨١ ، بيروت ،

١٩٥٢ م .

- زيفريد هونكة :

شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٧٣-٧٤

(١٠٠) الطبري :

المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٥٩ .

- فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ١٣ .

(١٠١) العدوي :

المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(١٠٢) ابن النديم (محمد ابن اسحق النديم) :

الفهرست ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت
لبنان ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ص ٣٧١ .

(١٠٣) العدوي :

المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(١٠٤) حسن (حسن إبراهيم) :

المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(١٠٥) الطبري :

المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٣٥٢ .

(١٠٦) ابن النديم :

المصدر السابق ، ص ٤٨٤ .

(١٠٧) ابن النديم :

المصدر السابق ، ص ٣٧١ .

- فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ١٣ .

(١٠٨) ابن النديم :

المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .

- العدوي :

المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(١٠٩) بينز (نورمان) :

المرجع السابق ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(١١٠) فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ١٤ .

(١١١) منتصر (عبد الحليم) :

تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، ص

١٠٧ ، ١٠٨ .

- فراج (عز الدين) :

المرجع السابق ، ص ٦٠ - ٦١ .

- فروخ عمر :

تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٣٣٠ - ٣٥٩ .

(١١٢) منتصر (عبد الحليم) :

المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(١١٣) ابن النديم :

المصدر السابق ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(١١٤) فازيليف :

المرجع السابق ، المقدمة ، ص ١٦ .

* * *

10

100

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100
101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200
201
202
203
204
205
206
207
208
209
210
211
212
213
214
215
216
217
218
219
220
221
222
223
224
225
226
227
228
229
230
231
232
233
234
235
236
237
238
239
240
241
242
243
244
245
246
247
248
249
250
251
252
253
254
255
256
257
258
259
260
261
262
263
264
265
266
267
268
269
270
271
272
273
274
275
276
277
278
279
280
281
282
283
284
285
286
287
288
289
290
291
292
293
294
295
296
297
298
299
300
301
302
303
304
305
306
307
308
309
310
311
312
313
314
315
316
317
318
319
320
321
322
323
324
325
326
327
328
329
330
331
332
333
334
335
336
337
338
339
340
341
342
343
344
345
346
347
348
349
350
351
352
353
354
355
356
357
358
359
360
361
362
363
364
365
366
367
368
369
370
371
372
373
374
375
376
377
378
379
380
381
382
383
384
385
386
387
388
389
390
391
392
393
394
395
396
397
398
399
400
401
402
403
404
405
406
407
408
409
410
411
412
413
414
415
416
417
418
419
420
421
422
423
424
425
426
427
428
429
430
431
432
433
434
435
436
437
438
439
440
441
442
443
444
445
446
447
448
449
450
451
452
453
454
455
456
457
458
459
460
461
462
463
464
465
466
467
468
469
470
471
472
473
474
475
476
477
478
479
480
481
482
483
484
485
486
487
488
489
490
491
492
493
494
495
496
497
498
499
500
501
502
503
504
505
506
507
508
509
510
511
512
513
514
515
516
517
518
519
520
521
522
523
524
525
526
527
528
529
530
531
532
533
534
535
536
537
538
539
540
541
542
543
544
545
546
547
548
549
550
551
552
553
554
555
556
557
558
559
560
561
562
563
564
565
566
567
568
569
570
571
572
573
574
575
576
577
578
579
580
581
582
583
584
585
586
587
588
589
590
591
592
593
594
595
596
597
598
599
600
601
602
603
604
605
606
607
608
609
610
611
612
613
614
615
616
617
618
619
620
621
622
623
624
625
626
627
628
629
630
631
632
633
634
635
636
637
638
639
640
641
642
643
644
645
646
647
648
649
650
651
652
653
654
655
656
657
658
659
660
661
662
663
664
665
666
667
668
669
670
671
672
673
674
675
676
677
678
679
680
681
682
683
684
685
686
687
688
689
690
691
692
693
694
695
696
697
698
699
700
701
702
703
704
705
706
707
708
709
710
711
712
713
714
715
716
717
718
719
720
721
722
723
724
725
726
727
728
729
730
731
732
733
734
735
736
737
738
739
740
741
742
743
744
745
746
747
748
749
750
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
817
818
819
820
821
822
823
824
825
826
827
828
829
830
831
832
833
834
835
836
837
838
839
840
84

المحتوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١
الفصل الأول	١
في المجال السياسي	٣
الفصل الثاني	٣٠
في المجال الاقتصادي	٣٢
الفصل الثالث	٥٠
في المجال الاجتماعي	٥٢
الفصل الرابع	٦٢
في المجال الثقافي	٦٤
حواشي البحث	٧٩
المحتوى	١٠٣

طی دروس

استاد محمد عبد الحکیم

۲۵ ۴۶ ۷۶

۱۰۷